كُتبٌ قيِّمة

منهج الإصلاح والتغيير
عند بديع الزمان النورسي

تأليف
عبد الله محمود الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

منهج الإصلاح والتغيير

عند بديع الزمان النورسي

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

كتب قيّمة
(١٨)

منهج الإصلاح والتغيير
عند بديع الزمان النورسي

تأليف
عبد الله محمود الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على مصطفاه، وبعد:

فهذه بضاعة مزجاة، أقدّمها عن عظيم من عظماء أمّتنا الإسلامية في عصورها الحديثة، تتناول محوراً من محاور شخصيته العملاقة، هو عبارة عن ملامح في خطة عظيمنا: بديع الزمان النورسي ـ خطّته الإصلاحية، ومنهجه في التغيير لمجتمع كان مسلماً، نقياً، مجاهداً، ثم غزاه الغزاة من الخارج، واصطنعوا لهم صنائع يغزونه من الداخل، ليحطّموه، ويلغوا شخصيته، ويبدّلوا هويته، ويمسخوه مسخاً، ليغدو قزماً يتمسّح بعتبات عملاق شاكي السلاح، سلاحٍ مادّي يقتل به ويدمّر، وسلاح فكري ظهير لذلك السلاح، بل كان الممهّد له في العقول والنفوس التي تربّت على أعين حاسدة حاقدة، طالما خططت ودبّرت للإجهاز

على (الرجل المريض) فكانت المؤتمرات المؤامرات، وكان الغزو من البرّ والبحر، وكانت الخيانات سلوكاً لناسٍ غُدُرٍ، ائتمنتهم الأمة في غفلة منها ومن أولياء أمورها الحاكمين، فلم تنتبه ليهودية مطلية بطلاء زائف جاز على المسؤولين، فحسبوا أصحاب الطلاء مسلمين، ولم يعوا حقيقة الأقنعة وما تخفي تحتها من سخائم وضغائن، وكيد وتآمر، وأحقاد تاريخية، وتطلعات توراتية تلمودية، واستراتيجيات وتكتيكات يرسمها دهاقنة المحافل الماسونية التي انتشرت هنا وهناك وهنالك، وتحت أسماء صريحة حيناً، خفيّة حيناً آخر.

* * *

بديع الزمان النورسي

فيما يلي تعريف موجز بالإمام بديع الزمان سعيد النورسي ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ليكون بمثابة المدخل إلى شخصيته.

المولد:

ولد سعيد النورسي في قرية (نُوْرس) الواقعة شرقي الأناضول في تركيا عام (١٩٢٤ هـ ـ ١٨٧٧ م)، من أبوين صالحين كانا مضرب المثل في التقوى والورع والصلاح، ونشأ في بيئة كردية يخيم عليها الجهل والفقر، كأكثر بلاد المسلمين في أواخر القرن الماضي، وبدايات هذا القرن؛ وإلى قريته (نُوْرس) يُنسَب.

علمه:

وقد بدت عليه أمارات الفطنة والذكاء منذ طفولته، ولمَّا

دخل (الكُتَّاب) وتتلمذ على أيدي المشايخ والعلماء بهرهم بقوة ذاكرته، وبداهته، وذكائه، ودقَّة ملاحظته، وقدرته على الاستيعاب والحفظ، الأمر الذي جعله ينال الإجازة العلمية وهو ابن أربع عشرة سنة بعد أن تبحَّر العلوم العقلية والنقلية بجهده الشخصي، فقد حفظ عن ظهر غيب، ثمانين كتاباً من أمَّات الكتب في اللغة والنحو والصرف والبلاغة والحديث والفقه والتفسير وأصول الفقه، كما حفظ القرآن الكريم في وقت مبكر من حياته الخصبة الحافلة.

كما عكف على دراسة العلوم العصرية، أو العلوم الطبيعية، من رياضيات وفلك، وكيمياء، وفيزياء، وجيولوجيا وجغرافيا وتاريخ وفلسفة حديثة وسواها من العلوم، حتى غدا عالماً فيها، ومناظراً فذّاً للمختصين بها، وصار له رصيد ضخم من المعلومات، مكَّنه من الانطلاق من مرتكزات علمية سليمة.

كان طالب العلم سعيد النورسي شديد الاحتفال والاشتغال والتعلّق بالفلسفة والعلوم العقلية، وكان لا يقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدها، كأكثر أهل الطرق الصُّوفية، بل كان يجهد لإنقاذ عقله وفكره من بعض

الأسقام التي أورثتها إياه مداومة النظر في كتب الفلاسفة.

مع القرآن الكريم:

في عام ١٨٩٤ تناهى إلى سمعه أن وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) وقف في مجلس العموم البريطاني، وهو يحمل المصحف الشريف بيده، ويهزّه في وجوه النوّاب الإنكليز، ويقول لهم بأعلى صوته:

«مادام هذا الكتاب موجوداً، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان؛ لذا، لا بدَّ لنا من أن نعمل على إزالته من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به».

فصرخ العالم الشاب سعيد النورسي من أعماقه:

«لأبرهنَنَّ للعالم أجمع، بأن القرآن العظيم شمس معنوية لا يخبو سناها، ولا يمكن إطفاء نورها».

ورأى النورسيُّ رسولَ الله ﷺ في المنام، وسأله أن يدعو الله له: أن يفهّمه القرآن، ويرزقه العمل به، فبشَّره الرسول الكريم بذلك، قائلاً له:

«سيوهب لك علم القرآن، شريطة ألاَّ تسأل أحداً شيئاً».

وأفاق النورسيُّ من نومه، وكأنما حيزت له الدنيا.. بل.. أين هو من الدنيا، وأين الدنيا منه.. أفاق وكأنما حيز له علم القرآن وفهمه، فقد آلى على نفسه ألاَّ يسأل أحداً شيئاً، استجابة لشرط رسول الله ﷺ، وقد وهبه الله ما تمنَّى، وصار القرآن أستاذه ومرشده وهاديه في الدياجير التي اكتنفت تركيا الكمالية.

بديع الزمان في مهبّ الأعاصير:

نستطيع تمييز مرحلتين في حياة الإمام سعيد النورسيّ:

الأولى: مرحلة سعيد القديم، وتبدأ من مولده حتى نفيه إلى (بارلا) عام ١٩٢٦، وهذه المرحلة هي مرحلة الإعداد الذاتي لنفسه، ومرحلة العمل الفردي، وخوض المعارك السياسية، مدافعاً عن الخلافة، وعن القرآن والإسلام، مهاجماً أعداء الإسلام والخلافة والقرآن.

وفي هذه المرحلة:

ـ وفي هذه المرحلة سافر إلى إستانبول عام ١٨٩٦ ليقدّم مشروعاً لإنشاء ـ جامعة إسلامية حديثة في شرقي الأناضول ـ بلاد الأكراد ـ وأطلق عليها اسم (مدرسة الزهراء)، لتكون

على منوال (الأزهر) في مصر، غير أنها تختلف عن الأزهر بتدريس العلوم الحديثة إلى جانب العلوم الشرعية والعربية، وذلك من أجل النهوض بالأكراد المسلمين المهملين الذين يفتك بهم الجهل والفقر والتخلف؛ ولكنَّ النورسي لم يلقَ قبولاً من السلطان عبد الحميد ومن وزير داخليته.

ـ وفي عام ١٩٠٧ سافر مرة أخرى إلى إستانبول، للغرض ذاته، وقابل السلطان عبد الحميد، وانتقد الاستبداد ونظام الأمن واستخبارات القصر (يلدز)، فأثار عليه حاشية السلطان، وأحالوه إلى محكمة عسكرية.

وكان النورسيّ في منتهى الشجاعة في التعبير عن رأيه أمام القضاة العسكريين، الأمر الذي جعل رئيس المحكمة يحيله إلى الأطباء النفسانيين، للتأكد من سلامة قواه العقلية، وكانت لجنة الأطباء المؤلفة من طبيب تركي، وآخر أرمني، وثالث رومي، ومن طبيبين يهوديين (!!!) قررت وضعه في مستشفى (طوب طاش) للمجانين (!!!).

وعندما حضر طبيب نفساني إلى المستشفى، لفحص قواه العقلية، بادره النورسيّ بحديث رائع عميق يأخذ بالألباب، فما كان من الطبيب إلا أن يكتب في تقريره:

«ولو كانت هناك ذرّة واحدة من الجنون عند بديع الزمان، لما وُجد عاقل على وجه الأرض».

ثم أحيل النورسيّ إلى وزارة الداخلية، وكان الحوار التالي بينه وبين وزير الداخلية:

الوزير: إن السلطان يخصّك بالسلام مع مرتّب بمبلغ ألف قرش، وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتّبك ثلاثين ليرة، كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك.

بديع الزمان: لم أكن أبداً متسوّل مرتّب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة؛ لأنّني لم آتِ لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضونه عليّ ليس سوى رشوة السكوت.

الوزير: إنّك بهذا تردّ الإرادة السلطانية، والإرادة السلطانية لا تُردّ.

بديع الزمان: إنّني أردّها، لكي يستاء السلطان ويستدعيني، عند ذلك أستطيع أن أقول له قولة الحق.

الوزير: إن العاقبة ستكون غير سارّة.

بديع الزمان: تعدّدت الأسباب والموت واحد، فإن

أعدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علماً بأنني عندما جئت إلى إستانبول كنت واضعاً روحي على كفي. . اعملوا ما شئتم، فإني أعني ما أقول: إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة، ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتباً، لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلاّ بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلاّ بترك المصالح الشخصية فإنّني معذور إذن عندما أرفض المرتب.

الوزير: إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حالياً.

بديع الزمان: إذن فلم يتأخر نشر المعارف، ويُستعجل في أمر المرتَّب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة؟.

ـ ثم ذهب إلى (سلانيك) مقرّ يهود الدونمة ومشتقاتهم من جمعية (الاتحاد والترقي) و(الماسونية) وسواهما، والتقى عدداً من شخصيات (الاتحاد والترقي) الذين كانوا يطمعون في كسب النورسيّ العبقري إلى صفّهم، وكان ممن التقاهم: (عما نوئيل قره صو) رئيس المحفل الماسوني،

وعضو مجلس المبعوثان (أي النواب) العثماني، وكان قره صو يطمع في النورسيّ، ولكنّ المقابلة بينهما لم تطل، لأن (قره صو) فرَّ هارباً من اللقاء، وهو يقول:

«كاد هذا الرجل العجيب ـ النورسيّ ـ يدخلني في الإسلام، بحديثه».

و(قره صو) هذا هو أول صهيوني ماسوني عمل على خلع السلطان عبد الحميد وإلغاء الخلافة.

ـ وفي هذه المرحلة اتّهم فيمن اتَّهم بحادثة ٣١ مارت (١٣/ ٤/ ١٩٠٩)، وسيق إلى المحاكمة، ورأى في الساحة خمسة عشر رجلاً معلَّقين على أعواد المشانق، ظنَّاً من القضاة أنَّ هذا المنظر سوف يرهبه.. قال له الحاكم العسكري خورشيد باشا:

ـ وأنت أيضاً تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن مَن يطالب بها يُشنَق هكذا (مشيراً بيده إلى المشنوقين).

فقام بديع الزمان سعيد النورسي وألقى على سمع المحكمة كلاماً رائعاً نقتطف منه ما يأتي:

«لو أن لي ألف روح لما تردّدت أن أجعلها فداء لحقيقة

واحدة من حقائق الإسلام، فقد قلت: إنّني طالب علم، لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنّني لا أعترف إلاّ بملّة الإسلام.. إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمّونه (السجن) في انتظار القطار الذي يمضي بي إلى الآخرة، لا لتسمعوا أنتم وحدكم، بل ليتناقله العالم كلّه؛ ألا لقد حان للسرائر أن تنكشف، وتبدو من أعماق القلب، فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها.

إنني متهيئ بشوق لقدومي للآخرة.. وأنا مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين عُلِّقوا في المشانق. تصوَّروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب إستانبول ومحاسنها، فاشتاق إليها.. إني مثله تماماً في شوقي إلى الآخرة والقدوم إليها. إن نفيكم إياي إلى هناك لا يعتبر عقوبة، إن كنتم تستطيعون فعاقبوني المعاقبة الوجدانية، لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، والآن فإنها تعادي الحياة، وإذا كانت هذه الحكومة هكذا؛ فليعش الجنون، وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم..».

وفي جلسة واحدة فقط صدر حكم ببراءة بديع الزمان سعيد النورسي من تلك المحكمة الرهيبة التي شنقت العشرات.

ـ أسّس (الاتحاد المحمّدي) في سنة ١٩٠٩ ردّاً على دعاة القومية الطورانية، والوطنية الضيقة، كجمعية الاتحاد والترقّي، وجمعية تركيا الفتاة.

ـ انضمّ إلى (تشكيلات خاصة) وهي مؤسسة سياسية عسكرية أمنيّة سريّة، شُكّلت بأمر السلطان محمد رشاد قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، من أجل المحافظة على أراضي الدولة العثمانية، ومحاربة أعدائها. وكان قد انضمّ إلى هذه المؤسسة كثير من المفكّرين والكتّاب، وكان النورسيّ من أنشط أعضاء قسم (الاتحاد الإسلامي) فيها، وأصدر مع عدد من العلماء (فتوى الجهاد)، التي تهيب بالمسلمين أن يهبّوا للدفاع عن الخلافة.

ـ وفي هذه المرحلة سافر إلى مدينة (وان) عام ١٩١٠، وبدأ يلقي دروسه ومحاضراته، متجوّلاً بين القبائل والعشائر الكردية، يعلّمهم أمور دينهم، ويرشدهم إلى الحق.

ـ وفي سنة ١٩١١ سافر إلى دمشق، وألقى في المسجد الأموي خطبته الشهيرة باسم الخطبة الشامية التي وصف فيها أمراض الأمة الإسلامية، ووسائل علاجها.

ـ وفي سنة ١٩١٢ عُيّن بديع الزمان قائداً لقوات

الفدائيين الذين جاؤوا من شرقي الأناضول، من الأكراد خاصة.

ـ وفي سنة ١٩١٦ تمكّنت القوات الروسية من الدخول إلى مدينة (أرضروم) التركية، وقد تصدّى النورسيّ وتلاميذه المتطوعون للقوات الروسية، وخاضوا عدة معارك ضدّها، ثم جُرح النورسي جرحاً بالغاً، ونزف نزفاً شديداً كاد يودي بحياته، الأمر الذي اضطرّ أحد تلاميذه إلى إعلام القوات الروسية بذلك، فاقتادوه أسيراً، وبقي في الأسر في (قومصطرما) سنتين وأربعة أشهر، ثم تمكّن من الهرب من معسكرات الاعتقال، إثر الثورة البلشفية في روسيا.

عزة المؤمنين:

وذات يوم قدم هناك إلى المحكمة الحربية بتهمة إهانة القيصر والجيش الروسي.

أما قصة ذلك فهي كما يأتي:

كان خال القيصر والقائد العام للجبهة الروسية «نيكولا نيكولافيج» يزور معسكر الأسرى، فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا (سعيد النورسي)، لاحظ القائد العام ذلك،

فرجع ومرَّ ثانية أمامه . . فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقف أمامه وجرت المحاورة الظريفة الآتية بينهما بواسطة مترجم للقائد:

ـ الظاهر أنك لم تعرفني؟

ـ بلى . . لقد عرفتك، إنّك نيكولا نيكولافيج، خال القيصر، والقائد العام في جبهة القفقاس.

ـ إذن فلِمَ تستهين بي؟

ـ كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

ـ وماذا تأمرك عقيدتك؟

ـ إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيماناً، والذي يحمل في قلبه إيماناً هو أفضل من الذي لا إيمان له، ولو أنني قمت لك، لكنتُ إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدّساتي، لذلك فإنني لم أقم لك.

ـ إذن فإنك بإطلاقك عليّ صفة عدم الإيمان، تكون قد أهنتني وأهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر.

تشكّلت المحكمة العسكرية، وقُدّم سعيد النورسي بتهمة إهانة القيصر والأمة الروسية والجيش الروسي.

ويسود حزن في معسكر الأسرى، ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحّين عليه القيام بالاعتذار للقائد الروسي وطلب العفو منه؛ إلاّ أنه رفض ذلك بإصرار، قائلاً لهم:

«إنني أرغب في الرحيل إلى الآخرة، والمثول بين يدي رسول الله ﷺ؛ لذلك فإنني بحاجة فقط إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

وتُصدِر المحكمة قرارها بالإعدام، وفي يوم التنفيذ تحضر ثُلّة من الجنود على رأسها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام، ويقوم سعيد النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسيّ:

ـ أرجو أن تسمح لي قليلاً لأؤدي واجبي الأخير.

ثم يقوم ويتوضأ ويصلّي ركعتين.

وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

ـ أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك

قاصداً إهانتي، ولكنني واثق الآن أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك، لذا فقد أبطلت قرار المحكمة، وإنني أهنئكَ على صلابتك في عقيدتك، وأرجو المعذرة منك مرة أخرى.

ـ في ١٣/ ٨/ ١٩١٨ عُيّن عُضواً في (دار الحكمة الإسلامية) التي كانت تضم كبار العلماء والشعراء والشخصيات؛ وقرّرت الحكومة له مرتّباً، ولكنه ما كان يأخذ منه إلا ما يقيم أوده، والباقي ينفقه على طباعة رسائله العلمية التي كان يوزعها مجاناً.

ـ وبعد أن احتلّ الحلفاء (الإنكليز والفرنسيون) العاصمة إستانبول، ألّف النورسي كتابه (الخطوات الست)، وحكم عليه الحاكم العسكري الإنكليزي بالإعدام على هذا الكتاب، وعلى نشاطه المعادي للقوات المحتلة، وأراد محبّوه إنقاذه، فدعوه إلى (أنقرة)، فأجابهم:

«أنا أريد أن أجاهد في أخطر الأمكنة، وليس من وراء الخنادق، وأنا أرى أنَّ مكاني هذا أخطر من الأناضول».

دُعي إلى أنقرة سنة ١٩٢٢، واستُقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، ولكنه لاحظ أن أكثر النوّاب لا يصلّون، كما أن

مصطفى كمال يسلك سلوكاً معادياً للإسلام، فقرّر أن يطبع بياناً في ١٩/ ١/ ١٩٢٣ تضمّن عشر مواد، وجّهه إلى النوّاب، واستهلّه بقوله:

«يا أيها المبعوثون.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم».

وكان من أثر هذا البيان الذي أُلقي على النوّاب، أنّ ستين نائباً قاموا لأداء فريضة الصلاة، والتزموا بالدين، الأمر الذي أغضب مصطفى كمال الذي استدعى النورسي، وقال له:

«لاشكّ أننا في حاجة ماسّة إلى أستاذ قدير مثلك، ولهذا دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك السديدة، ولكنّ أوّل عمل قمت به هو الحديث عن الصلاة.. لقد كان أول جهودك هنا هو بثُّ الفرقة بين أهل المجلس».

فأجابه بديع الزمان، مشيراً إليه بإصبعه في حدّة:

«باشا.. باشا.. إنّ أعظم حقيقة تتجلّى بعد الإيمان هي الصلاة، وإنَّ الذي لا يصلّي خائن، وحكم الخائن مردود».

عندها فكّر مصطفى كمال بإبعاده عن العاصمة، فعيّنه واعظاً عامّاً للولايات الشرقية، وبمرتّب مغرٍ، ولكنّ النورسيّ رفض الوظيفة والراتب.

ـ كتب النورسي ونشر في هذه المرحلة عدّة كتب ورسائل منها: إشارات الإعجاز ـ والسنوحات ـ والطلوعات ـ ولمعات ـ وشعاعات من معرفة النبي ﷺ وسواها باللغة العربية.

المرحلة الثانية من حياته:

في عام ١٩٢٣ غادر النورسي مدينة أنقرة إلى مدينة (وان)، حيث انقطع للعبادة في إحدى الخرائب المهجورة على جبل (أرك)، ولم يدرِ شيئاً عن الأعاصير التي تنتظره.

وجاء من يدعوه إلى تأييد ثورة الشيخ سعيد بيران ضد الحكومة الكمالية العلمانية المعادية للإسلام، فأبى تأييدها، ولكنّ هذا الموقف، وذلك الانقطاع للعبادة، لم ينجياه من غضب حكومة أنقرة التي أمرت بالقبض عليه، ونقله إلى إستانبول، ومن ثم إلى مدينة (بوردور)، ثم إلى (بارلا) في جوٍّ بارد من شتاء عام ١٩٢٦ القارس، فقد كان الجوّ بارداً، ومياه البحيرة متجمّدة، وأحد جذّافي القارب الذي يحمله إلى منفاه في المقدّمة يكسّر الثلوج بعصاً طويلة في يده، ليفتح بذلك طريقاً للقارب الشراعي.

وفي (بارلا) بدأت المرحلة الثانية من حياة بديع الزمان، وهي المسمّاة مرحلة سعيد الجديد، وقد كانت حافلة بالاتهامات والملاحقات والمطاردات والسجون والمعتقلات والمحاكمات والمنافي، مما لم يمرّ في حياة إنسان، وهو صابر محتسب، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ شعاره في ذلك:

«أعوذ بالله من الشيطان والسياسة».

وفي هذه البلدة صنع له أحد النجارين غرفة خشبية صغيرة غير مسقوفة، وُضِعت بين أغصان شجرة الدلب العالية، حيث كان النورسي يقضي فيها أغلب أوقاته في فَصليْ الربيع والصيف، متعبّداً لله، متأملاً متفكّراً، وعاكفاً على تأليف رسائل النّور طوال الليل، والناس يسمعون همهمات العالم العابد المتهجّد.

أمضى النورسي في (بارلا) ثماني سنوات ونصف السنة، ألّف فيها أكثر رسائل النور، وهو يعاني من عدّة أمراض، ولا يشتهي الطعام، بل كان يكتفي من الطعام بكُسيرات من الخبز مع قليل من الحساء (الشوربة)، ولا يقبل هدية ولا تبرعاً ولا زكاةً من أحد.. كان ـ كما قال عن نفسه ـ

يعيش على البركة والاقتصاد.

وفي هذه المرحلة كان يؤلّف ويكتب باللغة التركية، والحروف العربية، ويأمر تلاميذه بالكتابة بالحروف العربية، حفاظاً عليها من النسيان.

وقد أسهمت النساء بنسخ الرسائل ـ الكتب ـ التي كان يمليها بديع الزمان على تلاميذه، ثم يقوم هؤلاء بتهريبها إلى النساء، ليسهرن في استنساخها، ويقضين الليالي في ذلك، حتى إذا أنجزنها، سارت بها ركبان طلبة النور في طول البلاد التركية وعرضها.

ورسائل النور هذه تدعو إلى إنقاذ الإيمان، وعودة الإسلام إلى الحياة.

وتصدّى بها للعلمانيين والقوميين والسياسة الميكيافيلية القائمة على التزلف والنفاق والمصالح الشخصية. السياسة التي نحّت الدين جانباً، وولّى أصحابها وجوههم نحو أوروبا، والسير في ركابها. ولهذا رأيناه في هذه المرحلة، يقف ـ بكلّ قوة ـ في وجه التيارات الإلحادية الشاملة، برغم ضراوة الهجمة وشراستها، وبرغم ما تعرَّض له من نفي وسجن واعتقال.

وهذا يعني، أنَّ شعاره في هذه المرحلة: «أعوذ بالله من الشيطان والسياسة» لا يعني أنه تَخَلٍّ عن السياسة فعلاً، بل أراد به حماية تلاميذه من شرور الأشرار من السياسيين، ومع ذلك، لم ينجُ هو ولا تلاميذه من الملاحقة والمحاكمات والسجون التي أطلق عليها النورسي وتلاميذه اسم: المدرسة اليوسفية.

وقد جاء في قرار اللجنة المدقّقة لرسائل النور في مدينة (دنيزلي):

«ليس لبديع الزمان فعالية سياسية، كما لا يوجد أيّ دليل على أنه يؤسس طريقة صوفية، أو قائم بإنشاء أي جمعية، وإن موضوعات كتبه تدور كلّها حول المسائل العلمية والإيمانية، وهي تفسير القرآن الكريم».

ـ عندما أُطلق سراحه في الخمسينيات، كان في السابعة والسبعين من العمر، وكان يقول لزائريه أو الذين يرغبون في زيارته:

«كل رسالة ـ من رسائل النور ـ تطالعونها، تستفيدون منها فوائد أفضل من مواجهتي بعشرة أضعاف».

وكان قد طلب أكثر من مرّة من تلاميذه طلبة النور، ألاَّ يربطوا الرسائل بشخصه الضعيف، فيحطّوا من قيمتها، لأنَّ للإنسان أخطاءً وعيوباً قد سترها الله عليه.

كما كان يدعو تلاميذه إلى عدم التعلّق به، لا في حياته، ولا بعد مماته، فذلك له أضرار جسيمة على الدعوة.

ـ وكان النورسيّ يحبّ أعالي الجبال، كما يحبّ أعالي الأشجار الباسقة الشاهقة، وكان يفضّل الصلاة على الصخور المرتفعة، وكان يقول لتلاميذه:

«لو كان فيَّ قوة شبابكم هذا، لما نزلت من هذه الجبال».

لقد كان النورسيّ أمّة في رجل، وربَّى تلاميذه بالقدوة، وحياته كانت أكبر كرامة.. إنه رجل عصر المصائب والبلايا والمهالك ـ كما قال عن نفسه ـ وهو عصرنا، وقد هيَّأ الأدوية الناجعة للجروح الإنسانية الأبدية، وقدّمها إليها خلال رسائله وكتبه التي هي من نور القرآن العظيم.

وفاته:

توفّي الإمام النورسيّ في الخامس والعشرين من شهر

رمضان المبارك عام ١٣٧٩ هـ الموافق للثالث والعشرين من شهر آذار ١٩٦٠ م، تاركاً موسوعة إيمانية ضخمة تسدّ حاجة هذا العصر، وتخاطب مدارك أبنائه، وتدحض أباطيل الفلاسفة الماديين، وتزيل شبهاتهم من أسسها، وتثبت حقائق الإيمان وأركانه بدلائل قاطعة، وبراهين ناصعة، جمعت في ثمانية مجلّدات ضخام، هي: الكلمات ـ المكتوبات ـ اللمعات ـ الشعاعات ـ إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز ـ المثنوي العربي النوري ـ الملاحق ـ صيقل الإسلام؛ وقد تُرجمت إلى اللغات العربية، والإنكليزية، والألمانية، والأردية، والفارسية، والكردية، والفرنسية، والروسية وغيرها، ودُفن في مدينة (أورفة).

وبعد الانقلاب العسكري في تركيا في ٢٧/ ٥/ ١٩٦٠ قام الانقلابيون العسكر بنقل رفات الإمام النورسي إلى جهة غير معلومة.

وقد وصف شقيقه الشيخ عبد المجيد النورسيّ نقل رفات أخيه بديع الزمان في مذكراته، بعد خمسة أشهر من وفاته، فقد قالوا له:

«سنقوم بنقل رفات أخيك الشيخ سعيد النورسي من أورفه».

وقاموا بهدم قبر بديع الزمان، وقلت في نفسي: «لابدَّ أن عظام أخي الحبيب قد أصبحت رماداً، ولكنّ ما إن لمست الكفن، حتى خُيّل إليَّ أنَّه قد توفي بالأمس، كان الكفن سليماً، ولكنه كان مصفرّاً بعض الشيء من جهة الرأس، وكانت هناك بقعة واحدة على شكل قطرة ماء.

وعندما كشف الطبيب الكفن عن وجهه، نظرت إليه.. كان هناك شبه ابتسامة على وجهه.

احتضنا ذلك الأستاذ العظيم المظلوم، ووضعناه في التابوت الآخر الكبير الذي كان الجنود قد جلبوه، وقد ملأنا الفراغ حوله بالأعشاب.

وعندما تمَّ كلّ شيء، ذهبنا إلى المطار؛ كانت الشوارع خالية من الأهلين، ومليئة بالجنود المدجّجين بالسلاح، حيث أُعلن منع التجوّل في المدينة.

لم تسع الطائرة الأولى التابوت الكبير، فجلبوا طائرة ثانية، وضعنا التابوت فيها، وجلست بجانبه.

كان الحزن والأسى يملآن قلبي، وكانت عيوني مليئة بالدموع..

وقد اتجهت الطائرة إلى (أفيون)، ومنها نقل التابوت بسيارة إسعاف إلى مدينة (إسبارطة)، حيث دُفن في مكان

ما، لا يزال مجهولاً.

ولعلّ هذا كان استجابة القدر لما تمنّاه في وصيّته لتلاميذه بعدم معرفة مكان قبره، إلا بعدد الأصابع من تلاميذه المخلصين.

ملخّص حياة النورسيّ بقلمه:

وأخيراً نقدّم فقرات من الرسالة التي وجّهها النورسيّ إلى كل من رئيس الوزراء، ووزير العدل، ووزير الداخلية، بيّن فيها ملخّص حياته:

«إنَّ جميع رجال الدولة يعرفونني عن كثب، ولا سيما أولئك الذين عاصروا الظروف الجسام التي مرَّت على البلاد، منذ إعلان الحرية (الدستور)، وأثناء الحرب العالمية الأولى، وخلال غزو الحلفاء للبلاد ودخولهم إستانبول، وما أعقبه من أحداث لحين تشكّل الحكومة الوطنية، وفترة إعلان الجمهورية؛ فالذين يحيطون علماً بتلك الظروف ممن يتولّون الآن مناصب في الدولة يعرفونني معرفة جيدة، ومع هذا فاسمحوا لي أن أعرض مشاهد من حياتي أمامكم عرضاً سريعاً:

«ولدت في قرية (نورس) التابعة لولاية (بتليس)، وطوال

حياة التلمذة وتحصيل العلوم، دخلت في مناقشات علمية حادة مع كل من قابلته من العلماء، كنت أتغلّب عليهم بفضل العناية الربّانية، حتى بلغت إستانبول، وهناك في جوها المشوب بآفة الشهرة والصيت، لم أنقطع عن مناظراتي العلمية، إلا أن وشاية الحاسدين والخصماء أدّت بي أن أنساق إلى مستشفى المجاذيب بأمر السلطان عبد الحميد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ثم استقطبت نظر حكومة الاتحاد والترقي، بناءً على خدماتي أثناء إعلان الدستور وحادثة ٣١/ مارت، طرحت عليهم مشروع بناء جامعة في مدينة (وان) باسم (مدرسة الزهراء) على غرار الأزهر الشريف، حتى إنني وضعت حجرها الأساس بنفسي، ولكن ما إن اندلعت الحرب العالمية الأولى حتى شكّلت من طلابي والمتطوّعين (فرق الأنصار)، وتوليت قيادتهم؛ فخضنا معارك ضارية في جبهة القفقاس مع الروس المعتدين في (بتليس)، حيث وقعتُ أسيراً بيدهم، إلا أن العناية الربّانية أنجتني من الأسر، وأتيت إستانبول وعُيّنتُ فيها عضواً في دار الحكمة الإسلامية، وبادرت إلى مجاهدة الغزاة المحتلّين لإستانبول في تلك الظروف الحرجة، وبكل ما وهبني الله من

طاقة، إلى أن انتهت حروب الاستقلال، وتشكّلت الحكومة الوطنية في أنقرة، فنظرتْ من جديد ـ تثميناً لخدماتي تلك ـ إلى مشروع تأسيس الجامعة في (وان).

إلى هنا كانت حياتي طافحة بخدمة البلاد، وفق ما كنت أحمله من فكرة خدمة الدين عن طريق السياسة، ولكن بعد هذه الفترة ولّيت وجهي كليـةً عن الدنيـا، وقبرت (سعيداً القديم) ـ حسب اصطلاحي ـ وأصبحت سعيداً جديداً كلّياً للآخرة، فانسللت من حياة المجتمع، ونفضت يدي عن كل ما يخصهم، فاعتزلت الناس تماماً، واعتكفت في (تل يوشع) في إستانبول، ومن ثم في مغارات في جبال (وان وبتليس)، بتّ في مجاهدة مستديمة مع روحي ووجداني، وانفردت إلى عالمي الروحي رافعاً شعار: «أعوذ بالله من الشيطان والسياسة»، صرفت كلّ همّي ووقتي إلى تدبّر معاني القرآن الكريم، وبدأت أعيش حياة (سعيد الجديد)، أخذتني الأقدار نفياً من مدينة إلى أخرى، وفي هذه الأثناء تولّدت من صميم قلبي معانٍ جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم، أمليتها على مَن حولي من الأشخصاص، تلك الرسائل، التي

أطلقت عليها (رسائل النور)، لقد انبعثت حقاً من نور القرآن الكريم، لذا نبع هذا الاسم من صميم وجداني، فأنا على قناعة تامة ويقين جازم بأن هذه الرسائل ليست مما مضغته أفكاري، وإنما هي إلهام إلهي أفاضه الله سبحانه على قلبي من نور القرآن الكريم، فباركت كل من استنسخها، لأنني على يقين أن لا سبيل إلى حفظ إيمان الآخرين غير هذه السبيل، فلا تمنع تلك الفيوضات عن المحتاجين إليها.

وهكذا تلقفتها الأيدي الأمينة بالاستنساخ والنشر، فأيقنت أن هذا تسخير ربّاني وسوق إلهي لحفظ إيمان المسلمين، فلا يستطيع أحد أن يمنع ذلك التسخير والسوق الإلهي، فاستشعرت بضرورة تشجيع كل من يعمل في هذه السبيل امتثالاً بما يأمرني به ديني. فهذه الرسائل تربو على المئة والثلاثين رسالة، لا تبحث بحثاً مقصوداً عن أمور الدنيا والسياسة، وإنما تخصّ كليّاً أمور الآخرة والإيمان، وعلى الرغم من كل هذا فقد أصبحت الشغل الشاغل للانتهازيين والمتصيّدين في الماء العكر، حتى أوقفتني السلطات في كل من (أسكي شهر) و(قسطموني) و(دينزلي)، وأجرت

المحاكم تدقيقـات علمية على الرسائل، قام بها خبراء متخصصون، إلا أن الحقيقة ـ بفضل الله سبحانه ـ كانت تتجلَّى بنصاعتها دوماً، وتتبوَّأ العدالة مكانتها اللائقة بها»[1].

* * *

(١) استفدنا في كتابة ملخص حياة الإمام بديع الزمان النورسيّ من
١ ـ كتابات الأستاذ إحسان قاسم الصالحي.
٢ ـ سعيد النورسي: رجل القدر: لأورخان محمد علي.
٣ ـ بديع الزمان سعيد النورسي: د. فرج محمد الوصيف.

عَصْر النورسي

لن نستطيع معرفة مدى الظلام الذي خيَّم على تركيا بعد ما يسمَّى بالانقلاب العثماني، وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني، وسيطرة (الاتحاد والترقي)، والقوميين الطورانيين، الذين وصلوا بدولة الخلافة إلى حضيض التمزُّق، والتشرذم، والتخلف السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والفكري، والخواء الروحي؛ إلا إذا كنا على اطلاع دقيق على حالة الفوضى التي عمَّت البلاد التركية، بعد الاحتلال، وبعد التحرير، وما تبعها من مجازر قامت بها السلطة العلمانية ضدّ كلّ من تشتمّ فيه رائحة الإسلام، والتصدّي للعلمانية.. وعمليات قتل علماء الدين كانت نهجاً لحكومة مصطفى كمال، ولم ينجُ من العلماء إلا مَن هرب بدينه ودمه وأهله إلى البلدان المجاورة، أو مَن ناور، أو سار في ركاب العلمانيين، من ذوي

النفوس الهزيلة التي لا تهمّها إلا مصالحها الشخصية، وتسعى وراء المنصب والمال.

وقد سمعنا من بعض الذين لقيناهم من المهاجرين أبناء العلماء الفارّين بدينهم، ما تقشعرّ له الأبدان، وتدمى القلوب والنفوس.

عايش بديع الزمان النورسي أحداثاً جساماً، كان أشدّها على نفسه، ذلك الغزو الثقافي والفكري، تقوم به الدوائر الاستعمارية، وربائبها في الداخل، من خلال مؤسسات لها امتدادات خارج البلاد، في أوروبا الحلفاء المنتصرين.. وتغذّيها المحافل الماسونية، ودعاة العلمانية والقومية والماركسية.. حتى صار المسلمون في تركيا الحديثة، كالقطعان الهائمة في الليالي المطيرة؛ كانوا كمن فقد وزنه.. مسلوبي الإرادة مستذلّين مهانين، مستكينين للظالمين الذين أوقعوا بهم.. فسادٌ إداريٌّ محموم، وعجزٌ اقتصادي مريع، وديون مرهقة، وتخلّف وجهل، وفقر ومرض، وانحلال وفساد خلقي منظّم، ممنهج.. وحُماتهم لصوصهم، وأجهزة الأمن أجهزة قمع وفساد وإفساد.

الحاجة إلى إمام مجدّد:

ما كان الله ليذر المسلمين على ما هم عليه، وعلى ما أراده أعداؤهم في الخارج والداخل، فقد تكفّل الله سبحانه أن يبعث لهذه الأمة مَن يجدّد لها أمر دينها على فترات، وفي أماكن شتّى، وكان مدد الله لهذا الشعب المسلم المظلوم، واضحاً في هذا الرجل الذي أطلق عليه بعض الدارسين اسم (رجل القدر)[1]. كما أطلق عليه أساتذته وعارفوه لقب (بديع الزمان)[2]، هذا الرجل العالم الربّاني الذي كان يملك بين حناياه قلباً ذكياً، وعقلاً حصيفاً نقياً، ونفساً أبيّة، وروحاً عملاقة، وإيماناً شامخاً، وعلوماً يحار المرء وهو ينظر إليه، كيف حواها في صباه وشبابه المبكّر، وكيف حملها في هذا الرأس العجيب المستنير بأنوار القرآن، مع أنّه «قد طوى في جوانحه كل آلام تركيا وعذاباتها في تلك السنوات الحالكات.. في وطن خربت معظم مرافقه ومدنه وقراه، بعد سنوات الحرب العالمية الأولى، وسنوات من

(١) أورخان محمد علي ـ سعيد النورسي ـ رجل القدر في حياة أمة: عنوان الكتاب.

(٢) ترجمة حياة سعيد النورسي: ٣٦.

حروب الاستقلال.. وقُتل معظم شبابه..)[1].

ونسينا أن نقول: إن النورسي كان يملك سلّة فيها كلّ ما يملكه في دنياه: إبريق شاي، وبضعة أقداح، وقليل من السكر والشاي، وقليل من الزبيب، وسجّادة الصلاة..)[2].

ولكنّه كان يحمل في عينيه ولسانه وقلبه وعقله مصحفاً، هو أستاذه وشيخه ومرشده في دنياه وأخراه، ومَن أراد أن يرى الإيمان والقرآن والإسلام متمثلة في رجل يمشي على قدمين، فيما تسبح روحه في ملكوت السماوات والأرض، فلينظر إلى النورسي، أو فليقرأ سيرته وكلماته، وليتأمل كل كلمة خطتها يراعة روحه، بمداد الوعي والزهد والعلم والإيمان والصبر..

هذا الرجل الذي كان آية من آيات الله في الصبر والمصابرة، والمثابرة، وفي الشجاعة والإقدام، وفي الوعي والإخلاص والحركة، وفي التفاؤل والأمل الذي لم يفارقه لحظة من لحظات حياته، برغم ما يحيط به من ظلم وظلاَّم وظلام.. الرجل الذي أخذ نفسه بالعزائم في سائر أحواله،

(١) أورخان محمد علي: ٦.
(٢) المصدر السابق: ٥ ـ ٦.

فكان الطود الصامد في وجه الأعاصير . . الرجل الذي أدركته وشملته دعوة الرسول القائد ـ عليه الصلاة والسلام ـ «رحم الله امرءاً عرف زمانه، واستقامت طريقته». هذا الرجل، كان المجدّد في بلاد الأناضول، كما كان حسن البنّا في بلاد العرب، والمودودي في شبه القارة الهندية.

* * *

المؤثرات في تكوينه الفكري

من دراسة حياة الإمام النورسي، نستطيع أن نتبيّن نوعين من المؤثرات التي كوّنت شخصيته الفكرية:

١ ـ المؤثرات الاجتماعية: وتشمل:

أ ـ أسرته الصغيرة المكوّنة من أب تقي ورع، بلغ ورعه شأواً صار فيه مضرب الأمثال، فالوالد الصوفي (ميرزا) لم يذق حراماً قطّ، ولم يطعم أولاده من غير الحلال، حتى إنه كان إذا رجع ببقراته من المرعى، شدّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين[١].

وكانت أمّه الصالحة التقيّة (نورية) لا ترضع أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء[٢]. وقد قال النورسي عنها يوماً:

(١) إحسان قاسم الصالحي ـ بديع الزمان سعيد النورسي: ١٩.
(٢) المصدر السابق: ١٩.

«أقسم بالله، إن أرسخ درس أخذته، وكأنه يتجدّد عليّ، إنما هو تلقينات أمي ـ رحمها الله ـ ودروسها المعنوية، حتى استقرَّتْ في أعماق فطرتي، وأصبحتْ كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهز الثمانين، رغم أني قد أخذت دروساً من ثمانين ألف شخص. بل أرى يقيناً أن سائر الدروس إنما تُبنى على تلك البذور»[1].

وكذلك أخوه الكبير الملا عبد الله الذي عُرف بعلمه ودينه وتقواه.

ب ـ **قريته الصغيرة المحافظة**، والقرى والبلدات القريبة منها، وكتاتيبها ومشايخها، وأهلها البسطاء الطيبون المحافظون على دينهم، وقيمهم المتمثّلة بعادات وتقاليد منسجمة مع الدين الحنيف: بساطة وصدق، وعفوية، وكرم وشهامة ونبل، برغم ضيق ذات اليد، وبرغم الجهل والفقر والبؤس والتعاسة.

٢ ـ المؤثرات الثقافية:

أ ـ يَعُدُّ النورسي الشيخ عبد القادر الكيلاني ـ رحمه الله ـ

(١) سعيد النورسي ـ اللمعات: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

أستاذه الأول في كتابه: (فتوح الغيب)، يقول النورسي عنه:

«وبدأت أقرأ ذلك الكتاب، كأنه يخاطبني أنا بالذات.. كان شديد اللهجة، وقد حطم غروري، وأجرى عمليات جراحية عميقة في نفسي.. استفدت منه فوائد جليلة، وأمضيت معه ساعات طويلة، أصغي إلى أوامره الطيبة، ومناجاته الرقيقة»[1].

ب ـ الشيخ العالم الربّاني أحمد الفاروقي السرهندي ـ مجدّد الألف الثاني ـ في كتابه: (مكتوبات)، الذي «ورد في رسالتين منه لفظة (ميرزا بديع الزمان)، فأحسست كأنه يخاطبني باسمي، إذ كان اسم أبي (ميرزا).. والإمام الربّاني يوصي ـ مؤكّداً ـ في هاتين الرسالتين، وفي رسائل أخرى أنْ: (وحّد القبلة)، أي اتّبع إماماً ومرشداً واحداً، ولا تنشغل بغيره»[2].

جـ ـ علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة ولغة وسواها، تلك التي تلقّاها على أيدي علماء قريته والقرى

(١) سعيد النورسي ـ المكتوبات: ٤٥٩.
(٢) المصدر السابق نفسه.

والمدن الأخرى، وقد حفظ ـ في شبابه المبكّر ـ الكثير من متون أماتها، بل أمات الكتب الكبيرة، حتى القاموس المحيط ـ للفيروزأبادي ـ حفظ منه حتى حرف السين[١].

د ـ **العلوم الإسلامية** من: حديث شريف، وفقه، وأصول فقه، وتفسير، وعلم كلام، وسيرة وأخلاق، وسواها من العلوم التي تدور في فلكها[٢].

العلوم الكونية الطبيعية، من: فلك، وفيزياء، وكيمياء، وعلم طبقات الأرض، وجغرافيا، وفلسفة حديثة، وتاريخ، ورياضيات، وسواها[٣].

و ـ **الغرب، وفكره المادي**، وفلسفته القديمة أيام اليونان القدماء أو الإغريق، وفلسفاته الحديثة، وكلها مادية المنطلقات والغايات؛ درسها، واستوعبها، واتّخذ منها الموقف المناسب.

ز ـ **أسفاره**: فقد كان يتنقل في المدن والقرى، ويلتقي

---

(١) د. محسن عبد الحميد ـ النورسي الرائد الإسلامي الكبير: ١٣.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

العلماء والوجهاء وعامة الناس، ورجال الحكم والإدارة، كرحلته إلى الأستانة (إستانبول)، والتقائه السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان رشاد، والوزراء، ومصطفى كمال، وكرحلته إلى طرابلس الغرب وبنغازي، حيث اتَّصل بالشيخ السنوسي، واطّلع على تنظيمات الحركة السنوسية وزواياها، وتأثَّر بها، الأمر الذي جعله ـ بعد أن عاد إلى مدينة وان ـ يعمد إلى تشكيل فرق جهادية من طلابه وبعض المتطوعين، وقاتل بهم الجيش الروسي، الذي اجتاح مدينة تبليس، فأُسر إثر جرح بليغ أصابه[1].

وكرحلته إلى بلاد الشام، والتقائه علماءها، وإلقائه خطبته الشامية البليغة في المسجد الأموي عام ١٩١١ م، وفيها شخَّص أمراض الأمة الإسلامية، وعلاجاتها[2].

ح ـ ولكنّ المؤثر الأكبر في تكوينه الفكري والروحي والنفسي، إنما هو القرآن العظيم، فهو الأستاذ، وهو المرشد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وفيه يكون توحيد القبلة، لا في سواه.. يقول الأستاذ النورسي:

---

(١) ترجمة حياة: ١٠٢.

(٢) الصالحي: ٣٦.

«إنَّ بداية هذه الطرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلّها، وشمس هذه الكواكب السيارة.. إنما هو القرآن الكريم، فتوحيد القبلة الحقيقي لا يكون إلا في القرآن الكريم.. فالقرآن أسمى مرشد، وأقدس أستاذ على الإطلاق.. ومنذ ذلك اليوم أقبلتُ على القرآن، واعتصمتُ به، واستمددت منه (فالكلمات) والأنوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) ليست مسائل علمية فحسب، بل هي مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية، فهي بمثابة علوم إلهية نفسية، ومصارف ربانية سامية»[1].

هذه هي المؤثرات الاجتماعية والثقافية التي عملت على تكوينه الفكري، فجعلت منه عِالم عصره، وأهَّلته لاقتحام الحياة الفكرية والعقدية والسياسية.

ولا نستطيع إغفال جهده الشخصي في هذا التكوين البديع، الذي جعله ينال الإجازة العلمية من الشيخ محمد جلالي، وهو ابن أربع عشرة سنة، بعد أن تبحَّر في العلوم العقلية والنقلية، وحفظ ثمانين كتاباً من أمَّات العلوم العربية

(١) المكتوبات: ٤٥٩.

والإسلامية. . هذا التكوين هو الذي أهَّله لخوض سائر جوانب الحياة الفكرية والعقدية، وتبيين رأي الشرع في العديد من المسائل الدقيقة، كالقضاء والقدر، وحكمة خلق الإنسان، والعالم، والروح، ودمار العالم، ومسائل المسيح الدجَّال، ونزول سيدنا عيسى عليه السلام، وظهور المهدي، وشخصية الخضر، ومسائل أخرى حول الملائكة، والجن، وأشراط الساعة، وثواب الأعمال، وغيرها كثير من المسائل الغيبية، تقرؤها في مجموعة (الطلاسم)[1]، وسواها من كتاباته التي تؤكّد أنه عالمٌ لا يشق له غبار، بل بحر من العلم لا ساحل له.

* * *

(١) الصالحي: ١٩١.

منهجه في التعامل مع الخلافات الفكرية

يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

فالاختلاف ظاهرة طبيعية لتباين العقول والمدارك والتصورات والأفكار، «وكل تلك الأمور تفضي إلى تعدد الآراء والأحكام وتختلف باختلاف قائليها»[1]، وقد تباينت آراء العلماء في الاختلاف؛ فمنهم من عدّه شرّاً كلّه كابن مسعود رضي الله عنه، ومنهم من قال: «إن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف» كالسبكي الذي تسامح في الاختلاف في الفروع، وإن كان الاتفاق فيه خيراً من الاختلاف، أما ابن حزم رحمه الله فقد ذمّ الاختلاف، ولم يجعل شيئاً منه رحمة،

(١) د. طه العلواني ـ أدب الاختلاف في الإسلام: ٣٠ ـ ٣١.

بل عدّه كلّه عذاباً، ومع ذلك ظهر الاختلاف منذ عصر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ واستمر إلى يومنا هذا، ولكن العلماء وضعوا له ضوابط، استنبطوها من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، كالعدل، والإنصاف، والاجتهاد في الوصول إلى الطرف الآخر، والتجرد عن الهوى، وما إلى ذلك من الضوابط التي تحافظ على روح الأخوّة، وتلتزم التقوى، وتقلل من حجم الخسائر. والله سبحانه يعلمنا كيف نتعامل مع الذين نختلف فكرياً معهم من الناس، فيقول:

﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

بل ويقول سبحانه:

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].

والنورسي رجل قرآني، ومنهجه ـ في سائر أحواله ـ هو المنهج الذي نصّ عليه القرآن، ولذلك نراه يتعامل مع مخالفيه في الرأي بموضوعية، لا يتعصب لرأي ولا ينحاز لفريق دون آخر فيما اختلف فيه الناس، كالموقف من الأولياء، وأصحاب الكرامات، والشخصيات التي تُكُلِّمَ

فيها، كالشيخ محيي الدين بن عربي وسواه، وكأصحاب الجذب من الصوفية.. يجادل هؤلاء باللين، وبالتي هي أحسن ـ غالباً ـ إلا إذا وجد شططاً أو خروجاً عن دين الله، فإنه يثور، ويحتدّ، ويشتد.

يقول الأستاذ النورسي حول الخلافات في القضايا الاجتهادية، فيما ليس فيه نصّ صريح:

«إن تسعين في المئة من أحكام الشريعة مسلَّمات وضروريات دينية، شبيهة بأعمدة من الألماس.

أما المسائل الاجتهادية الخلافية الفرعية، فلا تبلغ إلا عشرة في المئة، فلا ينبغي أن يكون تسعون عموداً من الألماس، تحت حماية عشرة منها من ذهب، ولا تابعة لها.

إن معدن أعمدة الألماس وكنزها: الكتاب والسنة، فهي ملكهما، ولا تُطلب إلا منهما.

أما الكتب الأخرى، والاجتهادات، فينبغي أن تكون مرايا عاكسة للقرآن، أو مناظير إليه ليس إلا، إذ إن تلك الشمس المنيرة المعجزة، لا ترضى لها ظلاً ولا وكيلاً»[1]، فعوامل الاتفاق تسعة أضعاف عوامل الاختلاف، وهي جديرة بأن

---

(١) الكلمات: ٨٤٦.

تجمع المسلمين ولا تفرقهم، ولا ينبغي لها إلا أن تكون كذلك.

ونستطيع تلخيص منهجه الذي التزمه طوال حياته، تجاه مخالفيه في الرأي، بالنقاط التالية:

١ ـ لا يذكر أسماء الأشخاص والهيئات التي ينتقدها، أو يردّ عليها وعلى ما أثارته من شبهات حول الإسلام.

٢ ـ لا يشرح الشبهة، ولا يبسط المسألة التي سيردّ عليها، حتى لا يشوّش العقول، ويعكّر القلوب، بل يكتفي بالردّ عليها، ودحضها بالأدلة والبراهين.

٣ ـ يستخدم أسلوب الاستثناء في الردّ، مثلاً عندما يهاجم الأستاذ أوروبا وحضارتها، لا يهاجمها ككل، بل يستثني منها الطيب النافع، ويشدّد هجومه على القسم الفاسد منها، وكذلك الأمر في موقفه من القومية، عندما هاجم النوع السلبيّ منها، واستثنى الجانب الإيجابي.

٤ ـ الحذر فيما يكتب ويردّ، حتى لا يقع هو ورسائله وتلاميذه فرائس سهلة في أيدي المتربصين به وبدعوته.

٥ ـ اللين مع العلماء ومشايخ الصوفية، والشدّة والحدّة مع الملاحدة من علمانيين وقوميين وبلاشفة ودعاة التغريب.

٦ ـ وضع أسساً وقواعد للبحث العلمي، والتزمها في مباحثه وردوده، ودعا الآخرين إلى الالتزام بها، ليقلل من تشعب الخلافات، وهي:

أ ـ أن يسبر الباحث غور الموضوع.

ب ـ أن يتجرد من المؤثرات الزمانية.

جـ ـ أن يغوص إلى أعماق الماضي، للحصول على تجارب الآخرين.

د ـ أن يزن الأمور بموازين منطقية بحتة، دون تدخل العواطف.

هـ ـ أن يفتش عن منبع ومصدر كل شيء في بحثه.

وفيما يلي بعض القضايا التي تتضارب حولها الآراء، واختلف فيها النورسي مع الآخرين:

١ ـ التصوف:

كان الإمام النورسي من أزهد الناس في عصره، بل إن الذين كانوا في مثل زهده قلائل «لكنه لم يكن صوفياً، ولا صاحب طريقة مطلقاً؛ لذا فليست رسائل النور رسائل صوفية، ولا طلابها من الصوفيين. إذ كان الأستاذ يقول دائماً: ليس هذا العصر بعصر تصوف وطريقة، إنما هو عصر

إنقاذ الإيمان..»[1]. ويقول:

«إني أخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والنقشبندي والإمام الرباني، وأمثالهم من أقطاب الإيمان ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ أجل.. لو كان هؤلاء في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية، لأن منشأ السعادة الأبدية فيهما، وإن أي تقصير ـ مهما كان ـ فيهما، يعني الشقاء الأبدي»[2].

لماذا؟ لأن «قبول أقوال الأشخاص العظام لا يفيد اليقين ولا القطعية ـ في علم المنطق ـ بغير دليل، بل ربما تكون قضية مقبولة يقتنع بها الإنسان بالظن الغالب، أما البرهان الحقيقي ـ كما هو في المنطق ـ فلا ينظر إلى مكانة الشخص القائل، وإنما إلى الدليل الذي لا يُجرح.

فجميع رسائل النور من هذا القسم، أي من البرهان اليقيني. وإن ما يراه أهل الولاية الصوفية من الحقائق في العمل والعبادة والسلوك والرياضة الروحية، وما يشاهدونه

---

(١) الصالحي: ٢٠٢.

(٢) المكتوبات: ٢٠.

من الحقائق الإيمانية وراء الحجب، فرسائل النور أيضاً مثلهم، غير أنها في موضع العلم شقّت طريقاً إلى الحقيقة من خلال العلم، وفي موضع السلوك والأوراد فتحت سبيلاً إلى حقيقة الحقائق، ضمن براهين منطقية، وحجج عقلية؛ لذا فقد انتصرت على الضلالات الفلسفية المعاصرة، وتغلّبت عليها، في حين أن تيار (الحقيقة) و(الطريقة) قد تراجع أمامها»[1].

إنه يردّ ويقارن ويبيّن الفرق بين نهج مدرسة النور، ونهج المتصوفة، في هدوء، وعقلانية، ومنطق، ولكننا نراه في موقف آخر، يثور بأصحاب البدع ويعدّهم من جملة العاملين على هدم صروح هذا الدين؛ اسمعه يصرخ بهم:

«يا علماء السوء البائسين الذين يصدق عليهم اسم (الصادق الأحمق).

ويا أيها الصوفيون الجهلاء المجذوبون الفاقدون للعقل:

إن شجرة طوبى الإسلام قد ترسّخت عروقها في صلب الكون وحقيقته، وبثّت جذورها في ثنايا حقائق الكون كلّه،

(١) الصالحي: ٢٠٤، نقلاً عن ملحق أمير داغ: ١/ ٩٠.

فهذه الشّجرة العظيمة لا يمكن غرسها في تراب العنصرية الموهومة المؤقّتة الجزئيّة الخصوصيّة السلبيّة، بل التي لا أساس لها أصلاً، وهي المشحونة بالأغراض الظالمة المظلمة، وإن السعي لغرسها هناك، محاولة بدعية هدّامة رعناء»[1].

وحُقَّ للنورسي أن يخاطبهم بهذه اللهجة العالية، حتى يعودوا إلى رشدهم الذي فقدوه بسيرهم في ركاب القوميين المنحرفين، بحجة أنهم يغرسون الدين في مزرعة القومية، وهم كاذبون في هذا، سادرون في غيّ القوميين العلمانيين أعداء هذا الدين. والملاحظ أنه لم يذكر اسماً بعينه من أولئك العلماء الضالين، والمشايخ الغاوين.

٢ ـ قضية الاجتهاد:

هذه القضيّة الاجتهادية أثارت ـ وما تزال تثير ـ جدلاً حولها، مِنْ مُغْلقٍ لباب الاجتهاد، رافض تحت أي ذريعة أن يفتحه، وبين داع إلى فتح مغاليق تلك الأبواب، فالذين اجتهدوا رجال، و(نحن) رجال، الأئمة: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والثوري،

(١) المكتوبات: ٥٦٥ ـ ٥٦٦.

وابن عيينة، وسواهم من الأئمة المجتهدين (رجال)، ودعاة فتح باب الاجتهاد على مصراعيه (رجال) وإن كان كثير منهم لا يقيم عبارة. . وقد أدلى الأستاذ النورسي بدلوه في هذه القضية المهمّة، وناقشها بعقلانية ووعي للواقع المعيش فقال، دون أن يذكر آراء الآخرين، أو يشرح وجهات نظرهم:

«إن باب الاجتهاد مفتوح، إلا أن هناك ستة موانع في هذا الزمان تحول دون الدخول فيه:

١ ـ حتى لا نمهد للمتسلّلين والمخرّبين باسم الاجتهاد، ولا سيّما في زمن المنكرات، ووقت هجوم العادات الأجنبية، واستيلائها، وأثناء كثرة البدع، وتزاحم الضلالات، ودمارها.

٢ ـ إن الجوانب النظرية للإسلام قد استغنت بأفكار السلف الصالح، وتوسّعت باجتهاداتهم الخالصة، حتى لم تعد تضيق بالعصور جميعاً. فالانصراف عنها إلى اجتهادات جديدة اتباعاً للهوى، هو خيانة مبتدعة.

٣ ـ العالم الذكيّ في العصر الحاضر: قد غرق فكره في مستنقع الفلسفة المادية، وسرح عقله في أحداث السياسة،

وصار قلبه أمام متطلّبات الحياة المعيشية، وابتعدت استعداداته عن الاجتهاد. وبهذا ابتعد عن القدرة على الاجتهادات الشرعية، بمقدار تفننه في العلوم الأرضية الحاضرة، وقصّر عن نيل درجة الاجتهاد، بمقدار تبحّره في العلوم الأرضية.

٤ ـ تطلُّعُ الذين استحبّوا الحياة الدنيا إلى الاجتهاد، وتلوّثوا بالفلسفة المادية: وسيلةٌ إلى تخريب الوجود الإسلامي.

٥ ـ هناك ثلاث نقاط تدعو إلى التأمل والنظر، تجعل اجتهادات هذا العصر أرضية، وتسلب منها روحها السماوي، بينما الشريعة سماوية، والاجتهادات بدورها سماوية، لإظهارها خفايا أحكامها:

أولاً: إن (علّة) كل حكم تختلف عن (حكمته) فالحكمة والمصلحة سبب الترجيح، وليست مناط الوجود، ولا مدار الإيجاد، بينما (العلة) هي مدار وجود الحكم.

(وضرب مثلاً بقصر الصلاة في السفر).

«تُقصر الصلاة في السفر، فتُصلى ركعتان، فعلّة هذه الرخصة الشرعية: السفر. أما حكمتها: فهي المشقّة، فإذا

وُجد السفر ولم تكن هناك مشقة، فالصلاة تُقصر، لأن العلة قائمة، وهي السفر، في حين إن لم يكن هناك سفر، وكانت هناك أضعاف المشقة، فلن تكون تلك المشقات علّة القصر.

وخلافاً لهذه الحقيقة، يتوجّه نظر الاجتهاد في هذا العصر إلى إقامة المصلحة، والحكمة، بدل العلة، وفي ضوئها يصدر حكمه. فلا شك أن اجتهاداً كهذا أرضيّ وليس بسماويّ.

ثانياً: إن نظر هذا العصر متوجه أولاً وبالذات إلى تأمين سعادة الدنيا، وتوجّه الأحكام نحوها، والحال أن قصد الشريعة متوجّه أولاً وبالذات إلى سعادة الآخرة، وينظر إلى سعادة الدنيا بالدرجة الثانية.

ثالثاً: إن القاعدة الشرعية (الضرورات تبيح المحظورات) ليست كليّة، لأنّ الضرورة إن كانت ناشئة عن طريق الحرام، لا تكون سبباً لإباحة الحرام.

وحيث إن أهل اجتهاد هذا الزمان قد جعلوا تلك الضرورات مداراً للأحكام الشرعية، لذا أصبحت اجتهاداتهم أرضية، وتابعة للهوى، ومشوبة بالفلسفة المادية، فهي إذن ليست سماوية، ولا يصح تسميتها اجتهادات شرعية قطعاً.

٦ ـ قرب عهد المجتهدين الأوائل من عصر الحقيقة والنور، يسّر لهم أن يأخذوا النور الصافي من أقرب مصادره، فتمكنوا من القيام باجتهاداتهم الخالصة، في حين أن مجتهدي العصر الحديث ينظرون إلى كتاب الحقيقة من مسافة بعيدة جداً، حتى ليصعب عليهم أن يروا أوضح حرف فيه.

والخلاصة: «أما جزئيات الأحكام غير المنصوص عليها، التي تقتضي التبديل تبعاً للظروف، فإن اجتهادات فقهاء المذاهب كفيلة بمعالجة التبديل».

«تعددت المذاهب لعجز البشرية عن الوصول إلى مستوى واحد في حياتها الاجتماعية»[1].

ثم يقول أخيراً:

«كل من لديه استعداد وقابلية على الاجتهاد، وحائز على شروطه، له أن يجتهد لنفسه، في غير ما ورد فيه النص، من دون أن يُلزم الآخرين به، إذ لا يستطيع أن يشرّع ويدعو الأمة إلى مفهومه، إذ فهمُه يُعدُّ من فقه الشريعة، ولكنه ليس الشريعة نفسها.

---

(١) الكلمات: ٥٦٢ ـ ٥٦٩ باختصار.

لذا.. ربما يكون الإنسان مجتهداً، ولكن لا يمكن أن يكون مشرّعاً. فالدعوة إلى أي فكر كان، مشروط بقبول جمهور العلماء له، وإلا فهو بدعة مردودة، تنحصر بصاحبها ولا تتعدّاه، لأن الإجماع، وجمهور الفقهاء، هم الذين يميزون ختم الشريعة عليه»[1].

إنه يناقش القضية مناقشة علمية هادئة، منطلقة من واقع حال علماء المسلمين في عصره، لا يحجر على أحد، ولا يغلق ما حقّه الفتح، ولا يفتح ما حقُّه الغلق.. درس المسألة من جميع جوانبها، وسبر أغوارها، حسب قواعد البحث العلمي الذي ارتآه، دون أن يبسط آراء الآخرين القائلين بفتح باب الاجتهاد دون قيود وشروط.. إنه عالم رباني، عرف زمانه، واستقامت طريقته.

٣ـ العلماء والوعّاظ:

لم يغفل الأستاذ النورسي عن واقع العلماء والوعّاظ الذين يتصدّون لتعليم الناس وإرشادهم، ووعظهم، بل شرح واقعهم، وشخّص أمراضهم، ووصف لهم العلاج الناجع، ليؤدّوا مهمّتهم على خير وجه، من غير تسمية واحد منهم، أو

(١) الكلمات: ٨٤٨.

تجريح هيئة علمية معيّنة، فقال:

«لقد استمعت إلى الوعاظ، فلم تؤثّر فيّ نصائحهم ووعظهم، فتأملت في السبب، فوجدت هناك ثلاثة أسباب، علاوة على قسوة قلبي:

الأول: أنهم يتناسون الفرق بين الحاضر والماضي، فيبالغون كثيراً في تصوير دعاواهم، محاولين تزويقها، دون إيراد الأدلة الكافية التي لا بدّ منها للتأثير وإقناع الباحث عن الحقيقة. فالزمن الحاضر أحوجُ إلى إيراد الأدلة.

الثاني: أنّهم عند ترغيبهم في أمر ما، وترهيبهم منه، يُسقطون قيمة ما هو أهمّ منه، فيفقدون ـ بذلك ـ المحافظة على الموازنة الدقيقة التي هي في الشريعة، (أي بين المهمّ والأهم).

الثالث: إن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، هي أرقى أنواع البلاغة، فلا بدّ أن يكون الكلام موافقاً لحاجات العصر. إلا أنهم لا يتكلمون بما يناسب تشخيص العلة لهذا العصر، وكأنهم يجرّون الناس إلى الزمان الغابر، فيحدّثونهم بلسان ذلك الزمان».

ثم يأتي توجيهه لهم، وإرشاده إياهم إلى الأسلوب الأمثل فيقول:

«فعلى الوعّاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محقّقين، كي يتمكّنوا من الإثبات والإقناع، وأن يكونوا أيضاً حكماء مدقّقين، كي لا يفسدوا توازن الشريعة، وأن يكونوا بلغاء مقنعين، كي يوافق كلامهم حاجات العصر، وعليهم أن يزنوا الأمور بموازين الشريعة»[1].

كلام مقنع، يرضاه حتى العلماء الموجَّه إليهم هذا النقد، بأن كلاً منهم يستطيع أن يزعم أنه موجَّه لغيره، ثمّ لأنه نقد موضوعي قائم على وعي ودراسة ودراية لواقع الحال.

وتعيد رسائل النور وتكرر الدعوة إلى الوفاق والتصالح بين المدارس المختلفة:

يقول الأستاذ النورسي:

ولقد قلت مئة مرة، وأعيدها أيضاً: إنه لا بد من الوفاق والتصالح بين أهل المدارس الفقهية، والمدارس الحديثة، والزوايا الصوفية، لأجل وحدة الهدف، وذلك بتبادل الأفكار، وميل بعضها إلى بعض، ذلك أننا نرى ـ مع الأسف ـ أن تباين أفكارهم، كما أنها تفرّق الصفّ، فإنها توقف الرقيّ والتقدم كذلك[2].

---

(١) المحكمة العسكرية العرفية: ٦٩.

(٢) المناظرات: ٨٢.

وهكذا تبيّن لنا منهجه العلمي المنطقي القائـم على دراسة واقع الحال للمخالفين له في الفكر، من المحسوبين على الإسلام، ومن بعض القضايا الإسلامية، وهو لا يعوّل فيه على بسط آرائهم ونظرياتهم، إلا من خلال مناقشتها، ودحض المخطئ منها، في لين حيناً، وفي حدّة حيناً آخر، حسب مقتضى الحال.

٤ ـ موقفه من الأطروحات العلمانية:

العلمانية بضاعة غربية، وربما يهوديّة، صدّرها من صدّرها إلينا، واستوردها المستغربون الذين كانوا يحجّون بعقولهم وقلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم نحو أوروبا، استوردوها ـ على علاّتها ـ من هناك، وحاولوا تطبيقها على المجتمع المسلم في تركيا، كما شاء لهم أساتذتهم وشاء لهم الهوى، فباسمها اضطهدوا المسلمين، وقهروهم وأرغموهم على تنفيذ ما ترشّح عنها من قرارات جائرة كافرة، ومن سلوكيات فاسقة، ومن ظلم وسجن وقتل وتشريد.

وكانـت جمعيـة (تركيا الفتاة) ووصيفتها جمعية (الاتحاد والتـرقي) من أوائـل من تبنّى العلمانيـة في بـلاد

المسلمين عامة، وفي تركيا خاصة، وحاول أعضاؤها الذين كانوا يتلقون التعليمات والأوامر من المحافل الماسونية في سلانيك، ومن خارج الحدود ـ حاولوا ثم عملوا على عزل الدين عن الحياة.. عن الدولة ودوائرها، وعن التعليم في مراحله المختلفة، وقد تصدّى لهم النورسي الذي ما كان يأوي إلا إلى ركن الله الشديد، وبيّن لهم خطأهم هذا في كثير من كلماته ومرافعاته وخطبه، وكلما أتيحت له فرصة الحديث، للتشنيع عليهم؛ ومنها قوله:

«إن خطأ (تركيا الفتاة) نابع من عدم معرفتهم أن الدين أساس الحياة، فظنّوا أن الأمة شيء، والإسلام شيء آخر، وهما متمايزان، ذلك لأنّ المدنيّة الحاضرة أوحت بذلك، واستولت على الأفكار بقولها: إن السعادة في الحياة نفسها، إلا أن الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضرّ (أي المدنيـة الظالمة الملحدة التي تعـاني السـكرات)، وأن التجارب القاطعة أظهرت أن الدين حياة للحياة، ونورها وأساسها.. إحياء الدين إحياء لهذه الأمة، والإسلام هو الذي أدرك هذا..

إن رقيّ أمتنـا هو بمقدار تمسّـكها بالدين، وتدنّيهـا

وسقوطها بمقدار إهمالها له، بخلاف الدين الآخر.. هذه حقيقة تاريخية قد تنوسيت»[1].

ونلاحظ هنا أن الأستاذ ذكر جمعية تركيا الفتاة بالاسم، مع أنه ـ في أكثر رسائله ـ يتجنّب ذكر الهيآت والشخصيات بالاسم، ولكن الذي يقرأ ما يكتبه أو يلقيه، يستطيع معرفة المراد من كلامه.. وهو بهذا الأسلوب الحصيف الذي ألزم به نفسه وطلاب النور، استطاع النجاة ـ بفضل الله ـ من أولئك الحكام الذين حرّموا على الناس نقد العلمانية..

في شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ـ عام ١٩٢٦ وافق البرلمان التركي على مجموعة من القوانين المنافية للإسلام، المناوئة لتعاليمه وأحكامه، هي:

١ ـ تحريم تعدد الزوجات.

٢ ـ إلغاء المهر، وعدم فرضه على الزوج.

٣ ـ إلغاء حقّ الزوج في الطلاق.

٤ ـ حرية زواج المسلمة التركية من نصراني أو يهودي، دون التقيد بشرط الإسلام.

---

(١) الكلمات: ٨٦١.

٥ ـ التسوية بين الذكر والأنثى في الميراث.

٦ ـ إلغاء نظام الإرث بالتعصيب، والإرث بالقرابة البعيدة.

٧ ـ وضع حدّ لسنّ الزواج.

٨ ـ إلغاء نظام فصل النساء عن الرجال في الحافلات والقطارات والسفن والمراكب ودور السينما[1].

وبناء على هذه القرارات التي تبيّن توجّهات رجال الحكم الجمهوري العلماني، وبعد إلغاء المحاكم الشرعية، وقانون الشريعة الإسلامية، وإقرار العمل بالقانون المدني السويسري ـ دبّت الفوضى في المجتمع التركي الذي أصبح ساحة مفتوحة أمام الغزو الفكري الأوروبي، فانتشرت العادات الأوروبية في ذلك المجتمع المهزوم، وصارت بديلاً للعادات والأخلاق الإسلامية، نذكر منها:

ـ انتشار الفسق والفجور على نطاق واسع، وكان للصحافة السياسية والأدبية دورها الكبير في الترويج لها.

---

(١) د. فرج محمد الوصيف ـ بديع الزمان سعيد النورسي: ٣٦، نقلاً عن جهان أقطاش ـ اللبس والحكومة منذ التنظيمات إلى اليوم: ١٧٨.

ـ الاحتفال بالأعياد الغربية، كعيد رأس السنة الميلادية وسواه.

ـ دخول العادات الغربية بمناسبات الفرح والعزاء، كالموسيقى، والرقص، والخمور، والاختلاط، والتبرّج، والسّفور.

ـ انتشار أماكن بيع الخمور، والدعاية لها.

ـ انتشار أندية القمار، والدعاية لها.

ـ انتشار البنوك الربوية بشكل عجيب، في كلّ المدن والبلدات وكثير من القرى.

وصدرت قرارات بلبس القبعة، بدلاً من العمامة، وبإيفاد البنات إلى أوروبا بدون محارم، باسم العلم، وصدر قرار بنفي البنات الأبكار إلى خارج الحدود التركية، لإرغامهن على العهر، وقرار بتفكيك الأسرة، واعتبار الأولاد مسؤولين عن أنفسهم في سنّ معينة، الأمر الذي تسبّب في تسيّب أخلاقي فظيع، كما عمل على عقوق الوالدين، إلى جانب القرار الذي يلزم النساء بالسفور والاختلاط، وبقصر الوظائف على المعادين للدين، وإلغاء الحروف العربية، وتتريك الأذان والقرآن الكريم، إلى آخر

ما هنالك من موبقات الحكومة الكمالية.. كل هذه الأوضاع المحزنة في تركيا، عاصرها بديع الزمان، فاعتصر لها قلبه ألماً وحزناً، وكانت محرّكاً قوياً له في دعوته»[1]. وسوف نطالع مواقفه الشجاعة والعلمية على الأطروحات العلمانية التي كانت تعجّ بها الصحافة والأندية والمحافل والشوارع والأماكن العامة، وكان يتولى كِبْرها الحاكمون بأمر سادتهم من يهود ونصارى ومستغربين وقوميين وعلمانيين وبلاشفة.

٥ ـ التغريب:

بدأت حركة التغريب منذ عهد التنظيمات (١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م) ووصلت إلى أبعد أمدائها في عهد الكماليين، ونستطيع أن نحصي بعض أسباب نشوئها وتطورها بالتالي:

أ ـ المبتعثون إلى أوروبا من أجل الدارسة وسواها.

ب ـ المؤسسة العلمية لوضع الخطط والمناهج التي أسست عام ١٨٥١.

جـ ـ مكتب الترجمة (١٨٣٢م) الذي اعتمد على أبناء

---

(١) د. فرج محمد الوصيف ـ بديع الزمان سعيد النورسي: ٣٦ نقلاً عن جهان أقطاش ـ اللبس والحكومة منذ التنظيمات إلى اليوم: ٣٩ ـ ٤١.

الأقليات، ثم تحوّل إلى مدرسة فكرية ترمي إلى نشر الفكر الغربي.

د ـ الغربيون المستقدمون للعمل في المدارس والكليات العسكرية.

هـ ـ موظفو السفارات المبتعثون إلى أوروبا.

و ـ الجمعيات الفرنسية في كل من فرنسا وإستانبول.

ز ـ المؤسسات التعليمية الأجنبية في إستانبول[1].

وكان من مظاهر التغريب ـ إضافة إلى ما تقدم ـ في عهد الكماليين:

أ ـ الطعن بالإسلام ونبيّه المصطفى ﷺ.

ب ـ النيل من علماء الدين.

جـ ـ الدعوة إلى تغريب ما بقي من العبادات والأوامر الإلهية، كالدعوة إلى أن تصاحب الموسيقى ما في الصلوات من قراءة وأدعية، لإضفاء أجواء (روحانية) على تلك الطقوس (زعموا) وكوضع الكراسي والمنصات في المساجد.

---

(١) د. فرج محمد الوصيف ـ بديع الزمان سعيد النورسي: ٣٦ نقلاً عن جهان أقطاش ـ اللبس والحكومة منذ التنظيمات إلى اليوم: ٤٢ ـ ٤٤، باختصار.

د ـ تطويع الأدب ليكون أداة لنشر الأفكار الإلحادية، والجنس والعهر، فيما يسمّى الأدب المكشوف.

هـ ـ تغريب التعليم، وإلغاء التعليم الديني.

و ـ استبدال النعرة القومية بالدين.

ز ـ زيادة نشاط الاستشراق[1].

هذا النشاط المحموم لحركة التغريب أذهلت كثيرين، وأحبطت كثيرين، وساقت في ركابها عدداً من المهزومين من الداخل، من علماء الدين وأشباههم، ولكنه كان محرّضاً للإمام النورسي، ودافعاً إياه من أجل التصدّي لهؤلاء، والردّ عليهم بمنطقية وعقلانية وعلم الدارس للحضارة الغربية، وفلسفتها القديمة والحديثة، ولدينها النصراني، ولتوجّهاتها الاستعمارية، ومنطلقاتها وتطلعاتها المادية.. وقد فنّد كلّ ذلك بعشرات المقالات والمباحث الباهرة التي كان يقارن فيها بين المدنيّة الغربية المادية، والمدنيّة الإسلامية التي تسدّ حاجات الإنسان المادية، وترضي أشواقه الروحية.

---

(١) د. فرج محمد الوصيف ـ بديع الزمان سعيد النورسي: ٣٦ نقلاً عن جهان أقطاش ـ اللبس والحكومة منذ التنظيمات إلى اليوم: ٤٧ ـ ٥٣، باختصار.

يقول الأستاذ في (المَثْنَويّ العربيّ النّوريّ) لأولئك الأتراك المسلمين المستغربين:

«إن ظهور أكثر الأنبياء في الشرق، وأكثر الفلاسفة في الغرب، رمز للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق ويقوّمه إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة»[1].

ويهاجم ذلك التيّار البدعي المترشّح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبيّة، ويبشّر باضمحلال ذلك التيّار الذي سوف تسفيه الرياح، وينبّههم إلى أنّه «ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي بنّاء، مع التهاون في الدين» ويلفت انتباههم إلى أن العالم الإسلامي بُعدٌ استراتيجي مهم، وأن المسلمين الصادقين هم الذين يحبون الأتراك المسلمين، ويفرحون لانتصاراتهم على اليونان، وإذا عرف العالم الإسلامي بُعدكم عن الدين، فسوف ينصرفون عنكم، وعدم تمسككم بالدين يؤدي إلى العصيان والانشقاق، وإن الأعداء يحاولون تدمير شعائر الإسلام، مما يستوجب عليكم إحياءها، والمحافظة عليها، وإلا، فسوف تعينون ـ بغير شعور منكم ـ العدوّ المتحفّز للانقضاض عليكم.

---

(١) المثنوي: ١٩٧.

وأوضح لهم أن التهاون في تطبيق الشعائر الدينية، يفضي إلى ضعف الأمة، والضعف يغري العدوّ ويشجعه عليهم[1].

ويعرّي المدنية الغربية، وهو يقارن بينها وبين المدنية الإسلامية فيقول:

«إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها:

* هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم. ومن هذا تنشأ الجناية.

* دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة.

* رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوّى بابتلاع الآخرين. وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهَد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.

* وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، واتباع الشهوات

(١) المثنوي: ١٩٨ ـ ٢٠٠.

والرغبات، وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية، وتمسخ مسخاً معنوياً.

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير.

نعم.. إن خيالك ليمس فراء تلك الحيوانات وجلودها.. وآثارهم تدل عليهم»[1].

أما أسس المدنية الإسلامية، فيقول عنها:

«إنه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة..

إنها رحمة مهداة، نزلت من سماء القرآن العظيم.

أما أسس مدنية القرآن الكريم، فهي إيجابية، تدور سعادتها على خمسة أسس إيجابية:

* نقطة استنادها: الحقّ بدل القوة. ومن شأن الحقّ دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام، ويزول الشقاء.

* وهدفها: الفضيلة بدل المنفعة، وشأن الفضيلة:

---

(١) الكلمات: ٨٥٥.

المحبة والتقارب. ومن هذا تنشأ السعادة، وتزول العداوة.

* دستورها في الحياة: التعاون بدل الخصام والقتال. وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.

* وخدمتها للمجتمع: بالهدى بدل الأهواء والنوازع، وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به، مع تنوير الروح، ومدّها بما يلزم.

* رابطتها بين المجموعات البشرية: رابطة الدين والانتساب الوطني وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان، وشأن هذه الرابطة: أخوّة خالصة، وطرد العنصرية والقوميّة السلبيّة.

وبهذه المدنية يعمُّ السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضدّ أي عدوان خارجي»[1].

ثم يتساءل: لماذا أعرض المسلمون عن المدنية الغربية؟

ويجيب:

«لأنها لا تنفعهم، بل تضرّهم.

---

(١) الكلمات: ٨٥٦.

لأنّها كبّلتهم بالأغلال.. بل صارت سُمّاً للإنسانيّة، بدلاً من أن تكون لها ترياقاً شافياً، إذ ألقت ثمانين بالمئة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة في المئة منها في سعادة زائفة، أما العشرة الباقية، فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

وتتجمع الأرباح التجارية في أيدي أقليّة ظالمة، بينما السعادة الحقّة، هي في إسعاد الجميع، أو في الأقل، أن تصبح مبعث نجاة الأكثرية.

والقرآن الكريم النازل رحمة للعالمين، لا يقبل إلا طرازاً من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو للأكثريّة، بينما المدنيّة الحاضرة، قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حرٌّ طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبدّ، والشّهوة تتحكّم، حتى جعلت الحاجات غير الضروريّة في حكم الضروريّة. وهكذا مُحيت راحة البشريّة، إذ كان الإنسان في البداوة محتاجاً إلى أشياء أربعة، بينما أفقرته المدنية الحاضرة الآن، وجعلته في حاجة إلى مئة حاجة وحاجة، حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسدّ النفقات، فدفعت المدنيّة البشرية إلى ممارسة الخداع، والانغماس في الحرام؛ ومن هنا فسدت أسس الأخلاق، إذ أحاطت

المجتمع والبشريّة بهالة من الهيبة، ووضعت في يدها ثروة النّاس فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق.

والشاهد على هذا كثير، حتى إن مجموع ما ارتكبته البشرية من مظالم وجرائم وخيانات في القرون الأولى، قاءتها واستفرغتها هذه المدنيّة الخبيثة مرّة واحدة، وسوف تصاب بالمزيد من الغثيان في قابل أيامها»[1].

لقد قاءت في حربين عالميتين حتى لطخت بالدّم البرّ والبحر والهواء.

وإذا كان في المدنيّة الغربيّة محاسن، فهي «ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم، وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحثّ الشرائع ـ ولا سيّما الشريعة المحمديّة ـ وحاجة الفطرة البشريّة.

فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، لذا، لا يتملّكها أحد من النّاس»[2].

ثم يبيّن أن الإسلام يستعصي على الحضارة الغربية.

«إن النور الإلهي في الشريعة الغرّاء، يمنحها خاصة

---

(١) الكلمات: ٨٥٦ ـ ٨٥٧.

(٢) المصدر السابق: ٨٥٩.

مميزة، وهي الاستقلال الذي يؤدي إلى الاستغناء.

«هذه الخاصية لا تسمح أن يتحكم في ذلك النور دهاء روما الممثل لروح هذه المدنية، ولا يطعّم بها، ولا يمتزج معها. ولن تكون الشريعة تابعة لذلك الدهاء»[1].

فالنورسي «يرفض الأسس الثقافية في الحضارة الغربية، بدءاً من عصر اليونان إلى اليوم. ويحاول في رسائله كلها قطع جذور الثقافة الغربية وتأثيرها في الثقافة الإسلامية المعاصرة لأنها انطلقت من مبادئ الفلسفات الجاحدة التي أوجدت حالة من القلق والفوضى الفكرية والتشكيك والإلحاد في العالم الإسلامي، مستغلة تأخر المسلمين، وجهلهم بدينهم»[2].

ولكن موقفه هذا ليس موقف الرافض لكل ما يأتي من الغرب، فهو ـ مثلاً ـ يميّز بين نوعين من الفلسفة الغربية: الفلسفة الجاحدة التي ترفض الوحي الإلهي، وتنادي بالإلحاد، وهي فلسفة مادية كافرة مرفوضة؛ وبين الفلسفة المؤمنة الخادمة للدين التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعمق

---

(١) الكلمات: ٨٥٧.

(٢) د. محسن عبد الحميد ـ النورسي: ٧١ ـ ٧٢.

الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمهّد للرقي الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها، ولا يمكنها ذلك.

وكذلك موقفه من الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، هو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام أن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة، والاستفادة منها، لإقامة الحضارة، وبناء التقدم. ولذلك دعا المسلمين إلى الأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، وإلى تبنّي التكنولوجيا الحديثة[1] وتبنّي العلوم الكونية الحديثة. قال الأستاذ رحمه الله:

«ضياء القلب هو العلوم الدينية».

ونور العقل هو الفنون المدنية ـ أي العلوم الكونيّة الحديثة ـ

وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذلك»[2].

---

(١) د. محسن عبد الحميد ـ النورسي: ٧٢.
(٢) المثنوي: ١٤.

فإذا كان بعض علماء الاستغراب يريدون القضاء على العلوم الدينية، بزعم أنها رجعية متخلّفة. .

وإذا كان بعض علماء الشريعة، وعامة الناس، يريدون في العلوم الحديثة كفراً بواحاً يجب أن يبعدوا أبناءهم عنها في المدارس الحديثة. .

فإنه كان وسطاً بين هؤلاء وأولئك، يريد إقامة الجسور، لاهدم ما هو قائم منها. إنه من المدرسة الوسطية المعتدلة التي عرفت زمانها، واستقامت طريقتها، وراحت تفتش عن ضالّتها؛ فنادى بالمزج بين هاتين، وطالب عامة الناس بأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس الحديثة، فالعلوم الكونية ليست كافرة، بل هي تهدي إلى الله، وقد يكون مدرّسوها هم الكافرين والزنادقة.

وأخيراً نختم حديثنا عن موقفه من التغريب والحضارة الغربية والغرب بهذه المقولة الرائعة التي جاءت في خطبته الشامية سنة ١٩١١:

«إن أمريكا وأوروبا حاملتان بالإسلام، فكما أن الإمبراطورية العثمانية كانت حاملة بأوروبا فولدتْ، فلابدّ

أن يولد من أوروبا دولة للإسلام»[1] وليس بمستغرب أن يغزو الغربُ الشرق بالإسلام، في قابل الأيام.

٦ـ القومية:

والقومية بأنواعها: الطورانية، والعربية، والسورية، والفرعونية، وسواها من القوميات الضيّقة؛ من نتاج الفكر الغربي، التي استوردها دعاة التغريب والعلمانيون إلى بلاد المسلمين، مع أنها بضاعة كاسدة فات أوانها، وتخلّت عنها أوروبا منذ حين، ثمّ صدّرتها إلينا.

ودعاة القومية هم هم في طروحاتهم، بل العجب أن ترى رائد الدعوة إلى القومية العربية (ساطع الحصري) كان من أوائل من نادى بالقومية الطورانية في الأستانة، وحاول التنظير لها، وتأسيس مبادئها ومقوماتها وعناصرها، ثم جيء به إلى العراق وسورية ومصر، ليؤلّف العديد من الكتب التي تشرح نظرية القومية العربية.

وقد تنبّه بعض العلماء والمفكرين والسياسيين إلى خطورة هذه الدعوة التي سوف تمزّق الأمة الإسلامية شرّ

(١) عبد الفتاح أبو غدة ـ العلماء العزّاب: ٢٤٤.

ممزق، بل سوف تمزّق الشعب الواحد في القطر الواحد. فدولة كتركيا فيها الأتراك وفيها الأكراد وفيها العرب، وفيها غيرهم، ومثل هذه الدعوة العنصرية كفيلة بخلق المشكلات، وزرع العداوات بين أبناء الشعب الواحد، إذ سوف ينهض من كل عرق من ينادي بقوميته، فهذا قومي كردي، وذاك قومي عربي و. . و. . .

وكانت حساسية الأستاذ النورسي مفرِطة في هذا، لأنه كردي ويعرف ما سيفكّر به قومه والأقوام الأخرى، ولذلك تصدّى لهذه الدعوة الغربية، وردّ على دعاتها في العديد من المقالات والكتابات والرسائل، وفنّد مزاعم العرقية، والدماء الصافية، والأصل الواحد، فالشعوب اختلط بعضها ببعضها الآخر، بسبب الهجرات، ولم يعد في إمكان أحد إثبات صفاء العرق الواحد في أي شعب من شعوب العالم، ناهيك عن تركيا التي كانت إلى عهد قريب مركز الخلافة الإسلامية، وحامية حمى الإسلام والمسلمين، وموئل أبناء الأمة الإسلامية وملجأهم، وهم ينتمون إلى شعوب شتى. يقول الأستاذ:

«نقول لأولئك الذين يغالون في العنصرية، وفي القومية السلبية:

أولاً: لقد حدثت هجرات كثيرة جداً في بقاع الأرض كلها، ولا سيما في بلادنا هذه، منذ سالف العصور، وتعرّضت أقوام كثيرة إلى تغيّرات وتبدّلات كثيرة؛ ازدادت تلك الهجرات إلى بلادنا، بعد أن أصبحت مركزاً للحكومة الإسلامية، حتى حامت سائر الأقوام كالفراش حولها، وألقت بنفسها فيها، واستوطنتها، فلا يمكن والحال هذه تمييز العناصر الحقيقية بعضها عن بعض، إلا بانفتاح اللوح المحفوظ.

لذا.. فبناء المرء أعماله وحميته على العنصرية لا معنى له ألبتة، فضلاً عن أضرارها».

ثم يبيّن لدعاة القومية الطورانية، فائدتين من مئات الفوائد التي تكسبها الحمية الإسلامية:

الأولى: أن الذي حافظ على حياة الدولة الإسلامية وكيانها ـ رغم قلة عدد أفرادها ـ تجاه جميع دول أوروبا العظيمة، هو هذا المفهوم النابع من القرآن الذي يحمله جيشها:

«إذا متُّ فأنا شهيد، وإذا قَتَلْتُ فأنا مجاهد» هذا المفهوم دفع أبناء الوطن إلى استقبال الموت باسمين، ممّا هزّ قلوب الأوروبيين ووأرهبهم.

تُرى . . أيّ شيء يمكن أن يبرز في الميدان، ويبعث في روح الجنود مثل هذه التضحية والفداء، وهم ذوو أفكار بسيطة، وقلوب صافية؟ .

أيّ عنصرية يمكن أن تحلّ محل هذا المفهوم العلوي؟ .

وأيُّ فكر غيره، يمكن أن يجعل المرء يضحّي بحياته وبدنياه كلّها طوعاً في سبيله؟

الثانية: الأمة الإسلامية كالجسد الواحد، وقد بكى ٣٥٠ مليون مسلم لسقوط هذه الدولة الإسلامية، وهذا ما حمل المحتلين الأوروبيين على الانسحاب من المناطق التي احتلوها منها، حتى لا يثيروا عليهم مشاعر مئات الملايين من المسلمين .

فهل تُستصغر هذه القوة الظهيرة المعنوية والدائمة لهذه الدولة؟ .

وهل يمكن إنكارها؟ .

تُرى . . أيّ قوة أخرى يمكن أن تحلّ محلّها؟ .

هذا هو ميدان التحدّي، فليظهروا تلك القوة .

لذا لا يجوز أن نجعل تلك القوة الظهيرة العظمى تعرض عنا، لأجل التمسك بقومية سلبية، وحمية مستغنية عن الدين .

«ونقول للذين يبدون حماسة شديدة للقومية السلبية:

إن كنتم ـ حقاً ـ تحبّون هذه الأمة.. فعليكم أن تحملوا في قلوبكم غيرة تسع الإشفاق على غالبية هذه الأمة، لا على قلّة قليلة منها.. إذ الحمية بمفهوم العنصرية يمكن أن تجلب النفع والفائدة لاثنين من كل ثمانية أشخاص، فائدة مؤقتة، فينالون ما لا يستحقون من الحمية، أما الستة الباقون، فهم محرومون»[1].

وأحياناً لا يملك إلا أن يصرخ بملء فيه، في وجوه القوميين أهل البدع:

«يا أدعياء القومية السّكارى!.

إن العصر السابق، ربّما يُعدُّ عصر القومية، أمّا هذا العصر، فليس بعصر القومية، إذ إن مسائل البلشفية والاشتراكية تستحوذ على الأفكار، وتحطم مفهوم العنصرية، فقد ولّى عصر العنصرية.

واعلموا أن ملّيّة الإسلام الدائمة الأبدية، لا ترتبط مع العنصرية المؤقتة المضطربة، ولا تلقح بلقاحاتها، وحتى لو

(١) المكتوبات: ٤١٩ ـ ٤٢٠.

حدث هذا التطعيم بلقاحات العنصرية، فإنها تفسد أمة الإسلام»[1].

٧ـ وهكذا ديدن الأستاذ النورسي في مواجهة التيارات المعادية للإسلام، كالاشتراكية والشيوعية والصهيونية والمذاهب الوضعية، والفلسفات المادية الطبيعية وما إليها من تيارات ضجّ بها هذا القرن، وضجّت منها بلاد المسلمين، يقول بديع الزمان:

«إن الخطط المرسومة ضدّ الإسلام من قبل الشيوعية والصهيونية قد أخفقتها رسائل النور».

«إن مجابهة أولئك، والتصدي لهم، أو حتى النقاش معهم، لا يكون إلا بقراءة رسائل النور، فالرسالة الواحدة تقابل آلاف الخطط الخفية ضدّ الإسلام، لأنها تخاطب جميع الطبقات، ابتداء من الأمي، وانتهاء بالفيلسوف»[2].

ويخاطب المفكرين الظلاميين من عبّاد الفكر الغربي والعلماني المعادي للإسلام:

---

(١) المكتوبات: ٥٦٦.

(٢) أسيد إحسان قاسم ـ ذكريات عن سعيد النورسي: ١١٥.

«على المفكرين الذين غشيهم ظلام، أن يدركوا الكلام الآتي:

لا يتنوّر الفكر من دون ضياء القلب، فإن لم يمتزج ذلك النور وهذا الضياء، فالفكر ظلام دامس، يتفجّر منه الظلم والجهل، فهو ظلام قد لبس لبوس النور (نور الفكر) زوراً وبهتاناً.

ففي عينك نهار، لكنه بياض مظلم، وفيها سواد، لكنّه منوّر، فإن لم يكن فيها ذلك السواد المنوّر، فلا تكون تلك الشحمة عيناً، ولا تقدر على الرؤية.

وهكذا.. لا قيمة لبصر دون بصيرة، فإن لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة، فحصيلة الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة.. فلا عقل دون قلب»[1].

وكان أولئك المفكرون الظلاميون، سماسرة الظلم الإنساني، يروّجون للربا وللبنوك الربوية، ويسخرون من الزكاة والصدقات، فانبرى لهم، وبيّن فساد القائلين بمدنيّة الربا، ورجعية الدين الآمر بالزكاة، وفساد ما يدعون إليه، وظلمه، فقال:

---

(١) الكلمات: ٨٤٨.

«الربا يسبّب العطل، ويطفئ جذوة الشوق إلى العمل.

إن أبواب الربا ووسائطه (هذه البنوك) إنما تعود بالنفع إلى أفسد البشر وأسوئهم، وهم الكفار، وإلى أسوأ هؤلاء وهم الظلمة، وإلى أسوأ هؤلاء وهم أسفههم.

إن ضرر الربا على العالم الإسلامي ضررٌ محض. والشرع لا يرى تحقيق رفاهية البشر قاطبة في كل حين، إذ الكافر الحربيّ لا حرمة له، ولا عصمة لدمه»[1].

«فإن أرادت البشرية دوام الحياة، فعليها أن تستمسك بالزكاة، وتطرد الربا، إذ إن عدالة القرآن واقفة بباب العالم، وتقول للربا:

(ممنوع. لا يحق لك الدخول. ارجع).

ولكنّ البشرية لم تصغ إلى هذا الأمر، فتلقّتْ صفعة قوية (الحرب العالمية الثانية)، وعليها أن تصغي إليه، قبل أن تتلقى صفعة أخرى أقوى وأمرّ»[2].

وأخيراً اسمعه وهو يتحدث عن الطريق غير المشروع،

---

(١) الكلمات: ٨٧٧ ـ ٨٧٨.

(٢) المصدر السابق: ٨٥١ ـ ٨٥٢.

وكيف أنه يؤدي إلى خلاف المقصود، فيقول لعشّاق أوروبا وحضارتها المادية العارية من الأخلاق:

«القاتل لا يرث» دستور عظيم.

إن الذي يسلك طريقاً غير مشروع لبلوغ مقصده، غالباً ما يجازى بخلاف مقصوده، فمحبّة أوروبا غير المشروعة، وتقليدها، والألفة بها، كان جزاؤها العداء الغادر من المحبوب، وارتكاب الجرائم.

نعم.. فالفاسق محروم لا يجد لذة ولا نجاة»[1].

كان أسلوب الأستاذ يتصف مع هؤلاء بالهجوم العنيف، وذلك بدحض أباطيلهم، بإيراد الأدلة القوية الكافية، وتفنيد اتهاماتهم الظالمة، مع التذكير المستمر بأن هناك عذاباً ينتظرهم في الدنيا، كما أن هناك عذاباً أليماً في الآخرة.

ورسائل الأستاذ «لا تكفي بالهجوم أو الكشف عن السيئات الظاهرة لأهل الضلالة فحسب، وإنما تغزو أفكارهم وحججهم الواهية، ونقاط استنادهم الفكري، فتغزوها في جحورها، وتشنّ هجوماً شديداً عليها، محطّمة جميع الأسس التي يقوم

(١) الكلمات: ٨٥٢.

عليها بناؤهم الفكري، وأباطيلهم لتشويه حقائق الإسلام، وجماله المقدّس، كاشفة عن دسائسهم في التفريق بين المسلمين، وصدّهم عن التلذذ بنعمة الإيمان»[1].

* * *

(١) الصالحي: ١٦١ ـ ١٦٢.

ملامح خطته الإصلاحيّة والتغييريّة

أولاً: صفات لا بدّ منها في حامل لواء التغيير:

ليس كل قائد قادراً على الإصلاح والتغيير، وإن زعم لنفسه وللناس، وإن زعم له من يحيط به من بطانة وأتباع ذلك، والقادة التاريخيون الذين قاموا بعمليات التغيير قلائل عبر التاريخ، والذين زعموا أنهم قادة عظام كثر، ولكن الزمان طواهم فيمن طوى من الناس، ولم يعودوا شيئاً مذكوراً في التاريخ.

ولكثرة أولئك (القادة) الأدعياء، وجدنا من يضع صفات لا بدّ من تحققها في القائد القادر على التغيير والإصلاح، كالباحث الإداري ماكوين الذي بيّن مواصفات القادة الذين ظهروا في أعوام النموّ اللانهائي (الأيام الذهبية) في الستينيات والسبعينيات فقال:

«إن الخصال الحميدة للمقدام والجريء ـ أي النمط

القيادي الناجح في تلك الأيام ـ هي :

ـ التفاؤل .

ـ تحمّل الخسارة أو الخطر .

ـ المساواة بين العاملين مع تقدير المتفوق .

ـ التعطش من أجل كل جديد ومستحدث .

ـ أخلاقيات مهنية لا يطرأ الشك في جدواها على أصحابها .

وأمّا خصاله السيئة فهي :

ـ المداورة .

ـ الإغواء .

ـ الحاجة المستديمة للمغامرة كالمراهقين .

وهذا يؤدي إلى مشاكل ينشأ عنها : عدم الثقة، وأزمات»[1] .

ويلخّص الأستاذ الجابري ويحدّد بعض ما تتميز به القيادات المغيِّرة بالتالي :

ـ المقدرة على الفهم العميق لسنن التغيير وأساليبه .

---

(١) بشير شكيب الجابري ـ القيادة والتغيير : ٣٨ ـ ٣٩ .

ـ والمقدرة على صياغة الرؤى.

ـ والاستقامة الضرورية لبناء الثقة، والحصول على تأييد التابعين، وتعبئة الالتزام.

ـ ثم أهلية بناء الوضع الجديد، من إدخال التغيير إلى نظم المنظومة، والالتزام الشخصي بالسلوك المطلوب.

ـ الاهتمام بالربط بين الأفكار وبين سلوك الأتباع»[1].

ونظرة شاملة ودقيقة إلى حياة الإمام النورسي، تنبئ عن تحقق أكثر هذه الصفات فيه.. نقول: أكثر، ولا نقول: كل.. لأن طبيعة الحياة القاسية.. بل التي لم أسمع بمثلها، ولم أقرأ عن الأقل منها بكثير.. هذه الحياة التي أمضاها أو أمضى زهرتها القادرة على العطاء، في السجون والمعتقلات، وفي المنافي والمحاكمات (٢٨ سنة سجن ونفي ـ ١٥٠٠ محاكمة) لم تتح له شيئاً ولو يسيراً من الاستقرار، لوضع نظرية متكاملة في البناء الداخلي لتنظيم عصري يتناسب مع ضخامة الرأس الذي ملئ علماً وفهماً، ومع تفكيره العميق، وسعة آفاقه؛ كما لم تتح له وضع خطة للتغيير، بعناصرها ومقوّماتها.. بل أزعم أن النورسي لو تمتع بهامش من الحرية، كما تمتع الإمام البنا

---

(١) بشير شكيب الجابري ـ القيادة والتغيير: ٧٠ ـ ٧١.

في مصر، والإمام المودودي في شبه القارة الهندية، لكان لنا منه ما كان من الإمامين المذكورين، والله أعلم، ولكن (لو) تفتح عمل الشيطان، فلنمسك، ولنقل: ما شاء الله كان.

١ ـ **التفاؤل**: كان الأستاذ ـ رحمه الله ـ متفائلاً دائماً، وما ينبغي له إلا أن يكون كذلك، لأن التشاؤم واليأس والقنوط من صفات الكافرين، والنورسي من سادة المؤمنين المتفائلين بالنصر المبين لهذا الدين، وقد سبق أن ذكرنا نظريته المستقبلية عن أوروبا الحبلى بهذا الدين الحنيف، وسوف تلد يوماً نراه قريباً بإذن الله وعونه، ويراه غيرنا بعيداً أو مستحيلاً.

برغم المثبّطات والمحبطات والحياة المريرة، والمؤامرات الداخلية والخارجية على الإسلام والمسلمين، وبرغم السجون والمعتقلات والمنافي والمحاكمات.. برغم هذا كله، كان الأستاذ ـ رحمه الله ـ متفائلاً، ومؤملاً بإصلاح الفساد الذي استشرى في الدولة العثمانية، وفي صفوف المسلمين ورجال الإدراة والحكم.. «ففي سنة ١٩١١م سافر النورسي إلى بلاد الشام، وألقى خطبته البليغة من على منبر الجامع الأموي، دعا فيها المسلمين إلى اليقظة والنهوض، وبيّن فيها أمراض الأمة

الإسلامية، مبتدئاً باليأس، وبيّن سبل علاج تلك الأمراض، مستهلاً بالأمل[1].

«ولمّا آلت الدولة العثمانية إلى السقوط، ودخلت الجيوش الكافرة استانبول، كان بديع الزمان يحسّ بآلام في أعماق قلبه، وبدأ بتأليف كتابه (الخطوات الست) هاجم فيه الغزاة بشدّة، وأزال دواعي اليأس الذي خيّم على كثير من الناس»[2].

برغم الظلام الذي لفّ آسيا ومسلميها، كان يرى مستقبلها في هذا الإسلام، وليس في تلك الدعوات الهدامة التي اجتاحتها في جملة ما اجتاحت من ديار الإسلام والمسلمين. اسمعه يقول، وعينه تمتد إلى المستقبل المأمول:

«وغداً أنطلق إلى ساحة عقباي.

وأنا على يقين: أن مستقبل آسيا بأرضها وسمائها يستسلم ليد الإسلام البيضاء.

---

(١) المثنوي العربي النوري: ١٥.
(٢) المصدر السابق: ١٦.

إذ يمينه يمن الإيمان.

يمنح الطمأنينة والأمان للأنام»[1].

وهو متفائل بمستقبل الإنسان المستضعف المظلوم الذي سيكسر قيوده يوماً ما، ضمن نظرة مستقبلية قائمة على دراسة الماضي بمراحله التي اجتازها هذا الإنسان:

«إن الحروب الطفيفة بين الدول والشعوب، تتخلّى عن مواضعها إلى صراعات أشدّ ضراوة بين طبقات البشر، لأن الإنسان لم يرض في أدواره التاريخية بالأسر، بل كسر الأغلال بدمه، ولكنه الآن أصبح أجيراً يتحمل أعباءه، وسيكسرها يوماً ما.

لقد اشتعل رأس الإنسان شيباً بعد أن مرّ بأدوار خمسة:

الوحشية، والبداوة، والرق، وأسر الإقطاع. وهو الآن أجير.

هكذا بدأ، وهكذا يمضي»[2].

ولنسمع شهادة أحد تلاميذه وهو يروي هذه الحادثة التي

---

(١) الكلمات ـ اللوامع: ٨٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٨٥٢.

تدل على تفاؤله من كل ما يحيط به:

«كنت جالساً مع الأستاذ في جامع (نور شين) فقال لي:

ـ يا ملاّ حميد. انظر. إنني محاط بالأنوار.

فلم أفهم قصده من هذا الكلام، فبدأ يوضّح كلامه بقوله:

ـ إن القرية التي ولدت فيها اسمها (نورس)، واسم والدتي (نورية) وجدّي هو (نوري) والجامع الذي أبيت فيه (نور شين).

ثم تبسّم وقال:

ـ انظر إلى اللوحة المعلّقة هنا على الحائط، فقد كُتب: (عثمان ذو النورين) رضي الله عنه»[1].

٢ ـ تحمّل الخسارة أو الخطر:

ولسنا في حاجة للوقوف طويلاً عند هذا البند، فحياة النورسي كلّها ـ إذا قيست بالمقاييس المادية الدنيوية ـ خسارة في خسارة، خرج من دنياه كما دخل فيها أول يوم، ولم

---

(١) أسيد الصالحي: ٢٣.

يشكُ، ولم يتأفف، ولم يسأل أحداً مساعدة، بل كان ينفق من القليل الذي عنده على من معه من تلاميذ ومريديه، أو من سائر الناس، بل كان لا يقبل هدية من أحد، لأنه لا يتحمّل أذى المنّ عليه من أحد، بهدية أو سواها، لأسباب:

أ ـ لأن أهل الضلالة يتهمون العلماء باتخاذهم العلم وسيلة للتكسب، ويجب تكذيبهم.

ب ـ يجب الاستغناء عن الناس، كما فعل الأنبياء.

جـ ـ المعطي يعطي باسم نفسه، فيتمنّن ضمناً.

د ـ إن التوكل والقناعة والاقتصاد خزينة عظيمة وكنز ثمين لا يعوّضان بشيء. لا أريد أن أسدّ أبواب تلك الخزائن والكنوز التي لا تنفد، بأخذ المال من الناس»[1].

وكان يقول: «إنني أعيش بالاقتصاد والبركة، لا أقبل من غير رزّاقي الله منّة من أحد، وقررت ألاّ أقبلها طوال حياتي»[2].

وأمّا الخطر الذي كان يلاحقه كالليل ويحيط به، فقد

---

(١) المكتوبات: ١٦و ١٧.

(٢) المكتوبات: ٨٢؛ وانظر الصفحات: ٨٤، ٣٦٩، ٤٧٢، ٥٤١.

تحمّله وتقبّله راضياً. . حاولوا قتله بالسمّ مراراً، كما حاولوا توهين عزيمته وقواه الجسدية إلى درجة القتل في السجون والمعتقلات والمنافي، ولم يأبه لتلك الأخطار، ولم يكترث بالمتآمرين على حياته، لأنه كان يعتقد أن الأجل خير حارس للإنسان، فـ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

ولذلك كان يناضل ويجاهد على عدة جبهات، وكلّها محفوفة بالأخطار، نذكر منها:

أ ـ «في سنة ١٩١٢ وقبيل نشوب حرب البلقان، عُيّن بديع الزمان قائداً للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرقي الأناضول»[١].

ب ـ «على الرغم من معارضته دخول الدولة العثمانية الحرب، فإنه حالما أُعلنت، شكّل من طلابه ومن المتطوعين فرق (الأنصار) وخاض بهم ميادين القتال، وأبلوا البلاء الحسن ضدّ القوات الروسية المعتدية في جهة القفقاس.

وعندما دخل الجيش الروسيّ مدينة (بتليس) كان بديع

---

(١) د. محسن عبد الحميد: ٢٠، نقلاً عن (سعيد النورسي وجوانب مجهولة من حياته): ١٤٨.

الزمان يدافع مع طلابه عن المدينة دفاعاً مستميتاً، حتى جُرح جرحاً بليغاً، وأُسر من قبل الروس، وسيق إلى معتقلات الأسرى في سيبريا.

وفي الأسر كان يلقي دروسه الإيمانية على الضباط الذين كانوا معه، وهم تسعون ضابطاً»[1].

جـ ـ عندما احتلت قوات الحلفاء (الإنكليز والفرنسيين) مدينة استانبول، ودُعي إلى أنقرة، أبى أن يغادر العاصمة المحتلة، وحياته محفوفة بالخطر، وقال: «إنني أريد أن أجاهد في أكثر الأماكن خطراً، وليس من وراء الخنادق، وأرى أن مكاني هنا أخطر من الأناضول»[2].

هذا برغم أن القائد الإنكليزي الذي احتلّ استانبول كان قد حكم عليه بالإعدام، ثم تراجع عن تنفيذ الحكم، خوف ثورة المسلمين عليه، وكان النورسي قد ألّف كتابه: (الخطوات الست) وهاجم فيه المحتلين، وردّ على شبهاتهم التي أثاروها حول الإسلام[3].

---

(١) المثنوي العربي: ١٥.
(٢) بديع الزمان ـ صيقل الإسلام: ٥٤٦ ـ ٥٤٧.
(٣) د. الوصيف: ١٤٢.

د ـ وأخيراً نذكر هذا الجزء اليسير من مرافعته الهائلة أمام محكمة دنيزلي، قال لقضاة المحكمة في جرأة من لم يسمع بالموت:

«إن الزنادقة والمنافقين غرّروا بكم، وصفعوا العدل والحق، وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساسية، إلى مشاغل لا فائدة منها، واتخذوا من الاستبداد جمهورية، ومن الردّة نظاماً، ومن الجهل والسفه مدنيّة، ومن الظلم قانوناً، وبذلك خانوا وطنهم، وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضرب مثلها»[1].

وقال في أحد دفوعه في أخريات أيامه، موجّهاً كلامه للقضاة:

«ألا فلتعلموا جيّداً، أنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفُصل كلّ يوم واحد منها عن جسدي، فلن أحني هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية، أمام الزنادقة»[2].

---

(١) سيرة إمام مجدد: ٥٧؛ والشعاعات: ١٨؛ والدكتور محسن عبد الحميد: ٣١.

(٢) الشعاعات: ٢٩٤.

٣ ـ أمّا مساواته بين تلاميذه والعاملين معه: وحتى مع المجرمين الذين كانوا معه في السجن، فكانت خلقاً من أخلاقه، وصفة بارزة من صفاته، بل كانت من ضمن الدستور الاجتماعي الذي وضعه لنفسه ولطلاب النور، وهو القائل:

«إن العدالة التي لا مساواة فيها، ليست عدالة أصلاً».

٤ ـ وأمّا تعطشه لكل جديد ومستحدث: فقد مرّ معنا موقفه من العلوم الكونية، وخاصة التكنولوجيا، ودعوته إلى تدريس العلوم العصرية إلى جانب العلوم الدينية في المدارس الدينية، وحثّه الناس ليرسلوا أبناءهم إلى المدارس الحديثة. «وعندما دخلت رسائل النور المطابع، وبدأت في الانتشار، لم تكن ترى الأستاذ جالساً في مكانه قط، بل كان يصول ويجول في فعالية مستمرة، ونشاط دائم؛ كان فرحاً سعيداً دائماً، بحيث يكاد يطير من فرحه»[1].

٥ ـ وسوف يرى دارس رسائل النور مدى فهمه العميق لسنن التغيير وأساليبه، ومقدرته على صياغة الرؤى، ومدى اهتمامه بالربط بين الأفكار التي ينشرها بين أتباعه، وبين

---

(١) أسيد إحسان قاسم: ١١٠.

السلوك العلمي لأولئك الأتباع الذين ربّاهم على عينه، من خلال سلوكه الذي غدا قدوة لهم أولاً، ومن خلال رسائل النور التي كانت تنوب عنه، وهي تتسلل إلى أيدي تلاميذه الكثر، ثم إلى قلوبهم وعقولهم.

٦ ـ ما عرف الناس عن الأستاذ شيئاً من المداورة أو الغش أو الكذب، أو اللف والدوران، ولنتمعن في هذه الكلمة القيمة التي توضّح نظافة سلوك هذا الإمام المتوضّئ بالزهد والعفة والصدق وبسائر الفضائل:

«حبة واحدة من صدق، تبيد بيدراً من الأكاذيب.

إن حقيقة واحدة تهدم صرحاً من خيال.

فالصدق أساس عظيم، وجوهر ساطع. وربما يتخلى عن مكانه للسكوت، إن كان فيه ضرر، ولكن.. لا موضع للكذب قطعاً، مهما يكن فيه من فائدة ونفع.

ليكن كلامك كله صدقاً، ولتكن أحكامك كلها حقاً ولكن عليك أن تدرك هذا: أنه لا حقّ لك أن تبوح بالصدق كلّه.

اتخذ هذه القاعدة دستوراً لك:

«خذ ما صفا، دع ما كدر، فانظر بحسن، وشاهد

بحسن، ليكون فكرك حسناً، وظُن ظناً حسناً، وفكّر تفكيراً حسناً لتجد الحياة اللذيذة الهانئة.

إن الأمل المندرج في حسن الظن ينفع الحياة في الحياة.

بينما اليأس المخبوء في سوء الظن، ينخر سعادة الإنسان، ويقتل الحياة»[1].

إنه بعيد بعد السماء عن الأرض، عن سفاسف الأمور، وترّهاتها، وما ينبغي لمثله إلا أن يكون كذلك.. لا يغشّ أتباعه، ولا أحداً من الناس، لأن الغاش ليس من المسلمين، ولا يخدعهم، ولا يلقي بهم في المهالك، نتيجة نزوة صبيانية، أو مراهقة فكرية أو عاطفية؛ وبهذا استطاع المحافظة على تلاميذه جهد المستطاع، وكان قمة في افتدائهم بنفسه، وكان في الوقت نفسه لا يساوم على حساب دينه وعقيدته، وكان يقف في وجوه الطغاة في أقسى الظروف، لا يخشى في الله لومة لائم، وقد تسامى بإيمانه فوق كل أعراض الدنيا، وما كان يرضى الدنيّة في دينه[2].

---

(١) الكلمات: ٨٥٤.

(٢) نبيه زكريا عبد ربه ـ الحركات الإسلامية ضد الصهيونية والصليبية والشيوعية: ٣٠٣.

وبهذا تجاوز الأزمات مع أتباعه ومريديه، ونال ثقتهم إلى أبعد حدّ متصوّر.

ثانياً: بعض ملامح خطته التغييرية والإصلاحية:

أعترف بادئ ذي بدء أنني لم أطلع على كل ما كتبه الإمام النورسي رحمه الله رحمة واسعة، ولذلك قلت: (بعض ملامح) ولم أقل: (ملامح) لأن هذا يتطلب أكثر من الجهد الفردي لتراث فكري ضخم، ولحياة حافلة ما زال كثير من جوانبها مجهولاً إلى الناس، بسبب الإمام نفسه، وبفعل الظروف التي أحاطت به، وبفعل القوى السياسية والفكرية والثقافية المعادية له، وهي قوى كبيرة ضخمة لا يستهان بها، وكم كانت تتمنى لو استطاعت القضاء على فكر الرجل، وتجهيل الناس بذلك الفكر العملاق، بإخفائه ودفنه في مكان مجهول، كما فعلوا بجثمانه الشريف بعد موته، ولكن.. هيهات.

أحسّ بديع الزمان ـ في وقت مبكر، وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله ـ بالفساد والفوضى والتخلف الذي أصاب الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية

والروحية، وعرف أن الجهل الضارب أطنابه في أوساط العامة، يحتاج إلى حركة تغييرية قبل فوات الأوان، فالنذر كثيرة، وهي تشير إلى الموقع المتخلف للدولة والأمة اللتين تواجهان تحدّيات ضخمة، داخلية وخارجية، وهما غير قادرتين على مواجهة تلك التحديات الحضارية، والمؤامرات المتداخلة، إلا إذا غيّر الناس ما في أنفسهم، من بُعدٍ عن الله العظيم، وعن دينه القويم، وأخلاقه السمحة، ومبادئه العادلة.. عرف الموقع المتخلف للأمة، كما عرف أين يجب أن تكون، حتى تحافظ على نفسها، وعلى كيانها، وعلى دينها وقِيَمها.. يقول بديع الزمان:

«إن هذه الدولة التي أخذت على عاتقها منذ السابق، حماية استقلال العالم الإسلامي، وإعلاء كلمة الله، بالقيام بفريضة الجهاد ـ فرضاً كفائياً ـ ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء عن العالم الإسلامي الذي هو كالجسد الواحد، حامل راية الخلافة.. أقول:

إن هذه الدولة، وهذه الأمة الإسلامية ستعوّض عن هذا البلاء الذي أصابها، سعادة يرفل بها العالم الإسلامي، وحرية يتمتع بها، وستتلافى المصائب والأضرار الماضية،

فالذي يكسب ثلاث مئة بدفع ثلاث، لا شك أنه غير خاسر، وذو الهمّة يبدل حاله الحاضرة إلى مستقبل زاهر. فهذه المصيبة قد بعثت الشفقة والأخوة والترابط بين المسلمين بعثاً خارقاً»[1].

ويعزو أسباب الحرب العالمية التي أنزلت بالبشرية الكوارث، وحصدت ملايين الرؤوس. إلى «الضلال الناشئ من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكُّم الهوى.

أما ما يعود إلينا من سبب فهو:

إهمالنا أركان الإسلام، وتركنا الفرائض، إذ طلب منا ـ سبحانه وتعالى ـ ساعة واحدة من أربع وعشرين ساعة، طلبها لأجلنا نحن.. لأداء الصلوات الخمس، فتقاعسنا عنها، وأهملناها غافلين، فجازانا بتدريب شاق دائم لأربع وعشرين ساعة، طوال خمس سنوات متواليات. أي أرغمنا على نوع من الصلاة!.

وإنه ـ سبحانه ـ طلب منا شهراً من السنة نصوم فيه، رحمة بأنفسنا، فعزت علينا نفوسنا، فأرغمنا على صوم

---

(١) الكلمات: ٨٥٤.

طوال خمس سنوات، كفّارة لذنوبنا.

وإنه سبحانه طلب منا الزكاة عُشراً أو واحداً من أربعين جزءاً من ماله الذي أعطاه لنا، فبخلنا وظلمنا وخلطناه بالحرام، ولم نعطها طوعاً، فأرغمنا على دفع زكاة متراكمة، وأنقذنا من الحرام. فالجزاء من جنس العمل»[1].

وهذا يعني أنه لا بدّ من إصلاح هذا الخلل، حتى لا تستشري المصائب والكوارث والانتقام الرباني..

ثم ازداد إحساسه ووعيه بواقع الحال البئيس، والأوضاع التي تزداد تردياً، بسبب السياسة الحمقاء التي ينتهجها العلمانيون القوميون الكماليون، أصحاب الفكر الدخيل، على أيدي الدخلاء من يهود الدونمة، ومن الذين يتلقون الخطط والدسائس من المحافل الماسونية، لإفساد عامة الناس وخاصتهم، من خلال سياسة المنافع؛ هذا الوحش الرهيب الجائع المتعطش إلى امتصاص دماء كل الفضائل والقيم التي ارتقت بهذه الأمة حتى جعلتها فوق سائر الأمم، إنسانيةً وعدالة ورحمة وجمالاً وجلالاً: «والتودد إلى وحش

---

(١) الكلمات: ٨٥٩.

جائع لا يدرّ عطفه، بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره»[1].

تساءل بديع الزمان: أين نحن الآن؟.

وأجاب نفسه: في ذيل الدول.

ـ لماذا؟.

ـ لبعدنا عن ديننا العظيم، بسبب الجهل والتخلف والفقر والاختلاف والاستبداد والخمول والتآمر.

ـ وماذا علينا أن نفعل؟.

ـ كما أمر الله سبحانه ـ وكما بيّن أعظم سبب للتغيير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، عندما غيّرنا قيمنا، وتركنا إسلامنا، وقلّدنا غيرنا، وماتت الفضائل في أنفسنا، غيّر الله ما بنا من نعمة، فانتكسنا، ورجعنا القهقرى، ونحن الآن في ذيل الأمم، وإذا أردنا النهوض من جديد، فما علينا إلا تغيير ما في أنفسنا من فساد، وإلا العودة إلى هذا الدين العظيم، نتمسك بأهدابه، ونطبق تعاليمه في حياتنا العامة والخاصة.

---

(١) الكلمات: ٨٥٠.

يقول بديع الزمان:

«إن سياسة المدنية الحاضرة تضحّي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحّي قلة قليلة ظالمة، بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها (مصالحها).

أما عدالة القرآن، فلا تضحّي بحياة بريء واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة، إذ الآية الكريمة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] تضع سرّين عظيمين أمام نظر الإنسان:

الأول: العدالة المحضة، ذلك الدستور (القاعدة) العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية، مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية، وهذه سنّة دائمة.

والسرّ الثاني: هو لو قتل مغرور بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه، وإشباعاً لنزواته وهوى رغباته، فإنه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع»[1].

---

(١) الكلمات: ٨٦٢.

إذن.. وضع بديع الزمان يده على الداء، كما وضع يده على الدواء...

الداء: هو البعد عن الدين، وما تبعه من جهل وتخلّف وفوضى أخلاقية، والدواء بكل بساطة: يكمن في العودة إلى هذ الدين.. بإنقاذ الإيمان.. هذا هو الهدف الاستراتيجي الذي ألزم به نفسه وإخوانه منذ صمم على الإصلاح والتغيير، فإذا عاد الناس إلى إسلامهم وإيمانهم، سلم مسارهم عبر الدروب الموصلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وكان هاديه ومرشده في كل خطوة يخطوها في هذا المسار، هو القرآن والسنة.. يهتدي بنورهما في ذلك الظلام الذي لفّ تركيا، وهو يسير فوق الأشواك وبين الألغام. كما سار قائده الأعظم ـ ﷺ ـ وهو يشق طريقه إلى القلوب والعقول التي كانت غارقة بلوثات الجاهلية الوثنية العمياء، ومن هنا كان لا بد من الإعداد من أجل عملية الإصلاح والتغيير:

أولاً: إعداد النفس والفرد:

أ ـ ولكي يقوى على مكابدة وعثاء الطريق الشائك، كان لا بدّ من أن يأخذ نفسه بالترويض والتربية التي تزكّيها،

وتعينها على تذليل العقبات الكؤود التي ستعترض طريقها، وعلى تحمّل الآلام والأحزان وألوان العذاب الذي ينتظره، سنّة الله في الدعوات والدعاة..

بدأ بنفسه فعالج أمراضها، وخلصها من أوهاق الحياة المادية، ومن كل ما يخدش المروءة والعفّة والفضيلة، وزهد في كل ما يقتتل الناس من أجله.. زهد في المال والجاه والمنصب، وزهد بالشهرة والسمعة، وكل ما يتهافت عليه أبناء الدنيا، حتى غدا مثلاً حياً لم يدعو إليه.. تطابقت عنده النظرية مع السلوك، ولم تعد ثمة هوّة تفصل بينهم كدأب أكثر الناس ومنهم الدعاة أو علماء الدين.. أصلح نفسه قبل أن يدعو الآخرين، فوقع في قلوب الناس.. وقع كلامه وسلوكه وشخصيته المعنوية في قلوب الناس، حتى صار مثلاً يحتذى، وقدوة تربي طلابها بأفعالها قبل أقوالها. وقد قال عن نفسه:

«لا بد أن أبدأ بها أولاً، لأن من عجز عن إصلاح نفسه، فهو عن غيرها أعجز»[1].

---

(١) الكلمات: ٢٩٧.

والذي يطالع كتابه البديع: (المثنوي العربي النوري) الذي كتبه لنفسه قبل أن يكتبه للآخرين، وفيه خلاصة أفكاره، بما فيه من موازين علمية، ومعايير منطقية، ومناهج فطرية، تسدّ جَوْعة الروح، وهزال الفكر ـ يجد فيه نمطاً جديداً وفريداً من أساليب التزكية والتربية، فقد: «مزج فيه أدقّ الموازين العقلية، والمقاييس المنطقية، بأرفع الأشواق القلبية، وأسطع التفجرات الروحية، ضمن أمثلة ملموسة تكاد لا تخفى على أحد، آخذاً بيد القارئ برفق، متجولاً معه في ميادين النفس والآفاق، مبيناً له ما توصّل إليه من نتائج يقينية، بعد تجارب حقيقية، خاض غمارها تحت إرشاد القرآن الكريم.. المنهج القرآني الفريد لكل مسلم، بل لكل إنسان»[1].

ب ـ ثم ثنّى بإخوانه، ليكونوا الدعاة الوعاة في مجتمع تتناوشه العلمانية، ليشكّل منهم القاعدة الصلبة، والدروع القوية، ومنابع النور في مجتمع الكمالية التي ضرب العدوّ فيها رواقه، ومدّ أطنابه.. تعهّدهم بدروسه ومواعظه

---

(١) من مقدمة المثنوي للصالحي: ٥ ـ ٦.

ورسائله، يكشف لهم حقيقة ما يجري على الأرض التي حمى أصحابها الإسلام والمسلمين قروناً، ويهدم أروقه العلمانيين والمستغربين والقوميين، ويفند مزاعمهم وطروحاتهم، ويملأ قلوب طلاب النور بأنوار القرآن الكريم، وسنّة النبيّ العظيم، ويشحن نفوسهم بطاقة إيمانية، ويسلّح عقولهم بالأدلة والبراهين، لينطلقوا ـ من ثمّ ـ إلى بيوتهم، وقراهم، وأحيائهم، وأماكن عملهم، يبشّرون بتعاليم الإسلام، لا يخشون في الله لومة لائم، ولا يأبهون بكيد الكائدين، ولا بسجون الحاكمين، ولا بضلالات البلاشفة الملحدين..

كانت حياة الإمام مع القرآن، ومع منزِّل القرآن، ومع مبلّغ القرآن، وكذلك كانت حيوات الخلّص من تلاميذه طلاب النور.. ولا بدّ لمن عاش مثل هذه الحياة، أن يبادر إلى تصحيح المسار، وتقويم الانحراف، والتبشير بالأفكار المحورية التي تساعد في إنجاح مشروع التغيير والإصلاح.

كان يبثُّ الأمل في نفوسهم، وكان ـ بلسان حاله الدائب على العطاء، وبلسان مقاله ـ يؤكد عليهم للاستمرار الجاد في الدعوة، بلا كلل ولا ملل ولا خوف، ويحذرهم من

الأمراض القلبية التي شاعت في سلوك الناس، فكان لا يقبل أن يُغتاب في مجلسه أحد[1]، وكان يقول لهم وللناس جميعاً:

«منبع التكبّر: صغر النفس.

ومنبع الغرور: ضعف القلب.

والعجز منشأ الخوف.

والضيق معلّم السفاهة.

ومنبع الضيق: هو اليأس وسوء الظن.

والضلال ضلال الفكر.

والظلمات عمى القلب»[2].

ومن أجل التركيز على مطاردة هذه الأوباء، كان يكرر هذه المعاني في أكثر من مكان:

«يا من يحمل (أنا) مضاعفة.

ويحمل في رأسه غروراً وكبراً.

---

(١) أسيد إحسان قاسم: ٨٨.

(٢) الكلمات: ٨٧٣.

عليك أن تعرف هذا الميزان:

إن مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع

أمّا الناقصون القاصرون، فميزان الصِّغر فيهم هو التكبر»[1].

يقول أحد تلاميذه، كما جاء في كتاب (ذكريات عن سعيد النورسي):

«كان يتحدث في أغلب دروسه عن الأخوّة والإخلاص، وكان يشخص مرض زماننا هذا بالغرور، والأنانية، وحب النفس»[2].

وسمّى زماننا هذا بزمان الغفلة عن الله. يقول:

«في هذا الزمان ترى أصحاب الأفكار المنحرفة عن الدين، يجعلون كل شيء آلة ووسيلة لمصالحهم الخاصة، فنراهم يستخدمون الدين والعمل الأخروي وسيلة لمغانم دنيوية»[3].

---

(١) الكلمات: ٨٧٠.

(٢) ذكريات عن سعيد النورسي: ٩١.

(٣) المصدر السابق: ٩١.

أمّا طلابه طلاب النور، فلا ينبغي لهم أن يكونوا أنانيين أو مغرورين..

لقد قام الأستاذ النورسي بعملية تنوير وترشيد لطلاب النور، ليستطيعوا أداء المهمات المنوطة بهم:

ـ فأوصاهم بالبعد عن الجدال العقيم مع الآخرين، خاصة مع العلماء والصوفية والمبتدعة، حتى لا يندفع هؤلاء إلى جانب الملاحدة، ولا مع رجال الحكم.

ـ وفضح لهم خطط الملاحدة، وفند دعاوى العلمانيين الباطلة.

ـ ودعاهم إلى الوقوف بحزم في وجه المادية الطاغية.

ـ وصبّرهم على المحن، فالسجن للعبادة والتوبة والإنابة، وهو حائل دون الذنوب ومدعاة لتطهير النفس. وضرب لهم الأمثال بالأئمة الممتحنين، كأبي حنيفة وابن حنبل.

ـ ودعاهم إلى الصفح عمن أساء إليهم، وألا يحملوا في نفوسهم روح الانتقام منهم ولو بمقدار ذرة[1].

---

(١) الملاحق: ٣٧٢.

وقد عُني بلاميذه كل هذه العناية، لأنه يعتقد بحق، أن: «الكيف أهم وأفضل من الكم، وتبليغ حقائق القرآن إلى عشرة أفراد بإخلاص وصدق، أهم عندي من إرشاد آلاف في طريقة صوفية، وتبليغ الدعوة إلى عشرة أشخاص، بمنزلة نواة تنبت وتصبح شجرة ثابتة بإذن الله. . لكن هؤلاء الآلاف من المتصوفة، يمكن أن تزلزل أفكارها أمام الهجوم الفلسفي المضلل».

ثانياً: البيت والأسرة:

وركز الأستاذ النورسي على البيت والأسرة، زوجاً وزوجة وأولاداً، ودعا إلى الحفاظ عليها، فهي الخلية الأولى في المجتمع الصالح فقال:

«إن الحياة الأسرية هي قلعة الإنسان الحصينة، ولا سيما المسلم. . هي كالجنة المصغّرة، ودنياه الصغيرة»[1].

ولهذا «تعهد طالبات النور، فأرشدهن من خلال رسائل متعددة إليهن، إلى حسن الإقبال على الله، ورعاية البيوت،

---

(١) د. الوصيف: ١١٩.

والأولاد، وحسن العشرة الزوجية، والحفاظ على عفتهن وطهارتهن النابعة من الدين الحنيف، وعدم الجري وراء مادياتها الحاضرة الغربية المهلكة[1].

وكتب رسالة (الحجاب) وحُوكِمَ بسببها، «وتوجّه بها أولاً إلى كل مسلمة تركية، صيانة لها من الأفكار الإلحادية التي انتشرت في تركيا، والمنادية بانسلاخ المسلمة من عقيدتها وشريعتها، ثم من عفّتها وحشمتها وحجابها، بحجة التقدم ومسايرة ركب الحضارة الغربية، فأوصاهن بالتمسك بأوامر الله، لأنها كلها رحمة، وعرّفهن بسفاسف المدنية الغربية وزيفها»[2].

ودعا المرأة إلى الكسب الحلال بعمل يدها، وأوصى بالوالدين والأقارب وبإحسان تربية الأولاد، وقال:

«اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة، على الإيمان، فيكونوا لكم شفعاء يوم القيامة، وأبناء

---

(١) د. الوصيف: ١٦٥.

(٢) المصدر السابق: ١٧٤.

بررة في هذه الدنيا»[1].

وحذّر من إهمالهم هذه التربية، ومن التربية الأوروبية، لأنهم يكونون وبالاً عليهم في الدنيا، ومحاسبين لهم في الآخرة، يوم يسألونهم: لمَ لم تنقذوا إيماننا؟ فيندمون، ولات ساعة مندم.

وحذّر من مظاهر الميوعة في النساء والرجال فقال:

«إذا تأنثت الرجال السفهاء بالهوسات

ترجّلت النساء الناشزات بالوقاحات.

لقد أطلقت المدنية السفيهة النساء من أعشاشهن، وامتهنت كرامتهن، وجعلتهن متاعاً مبذولاً.

بينما شرعُ الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن، رحمة بهن، فكرامتهن فيها، وراحتهن في بيوتهن، وحياتهن في دوام الأسرة.

الطهر زينتهن

الخلق هيبتهن

---

(١) د. الوصيف: ١١٧.

العفة جمالهن

الشفقة كمالهن

الأطفال لهوهن

ولا تصمد إزاء جميع هذه الأسباب المفسدة إلا إرادة من حديد».

وحذر من الاختلاط وما ينجم فيه من مفاسد:

«كلما دخلت حسناء في مجلس تسود فيه الأخوّة، أثارت فيهم عروق الرياء والمنافسة والحسد والأنانية، فتتنبه الأهواء الراقدة».

وبيّن مفاسد التبرج، والسفور، وأثرهما على الأخلاق:

«إن تكشف النساء تكشفاً دون قيد، أصبح سبباً لتكشف أخلاق البشر السيئة، وتناميها».

وكان قد شاع انتشار الصور العارية في الصحافة، حتى السياسية والأدبية منها، ناهيك عن الصحف الفنية، فحذَّر منها وشرح أخطارها:

«هذه الصور التي هي جنائز مصغّرة، وأموات متبسمة، لها دور خطير جداً في الروح الرعناء للإنسان المتحضر، بل

إن تأثيرها مخيف رعيب».

كما أن النظر إلى جثة المرأة نظرة شهوانية دليل على دناءة النفس وخسّتها، كذلك النظر بشهوة إلى صورة جميلة لحسناء ميتة محتاجة إلى الرحمة، يطمس مشاعر الروح السامية.

وكذلك التماثيل التي بدأت تنتشر، كما في العواصم والمدن الأوروبية: روما وباريس وغيرهما، وهي تماثيل عارية.. هاجمها، وبين آثارها السلبية على الإنسان:

«إن الهياكل والتماثيل الممنوعة شرعاً، والصور المحرمة، إمّا أنها ظلم متحجر، أو رياء متجسد، أو هوى متجمد، أو طلسم يجلب تلك الأرواح الخبيثة»[1].

وإنما كان هجومه على الصور العارية، والتماثيل الفاضحة، بسبب ما تتركه من وطأة على حياة الفرد، ثم الأسرة التي يدعو إلى المحافظة عليها.

ثالثاً: ودعا إلى إصلاح المجتمع، بتخليصه من الأمراض النفسية المهلكة، من عداوة، وتحاسد، وتباغض،

---

(١) د. الوصيف: ١١٩.

وفرقة، وعطالة، وتهالك على اللذات.

وكان يحارب العجز والجزع اللذين هما شأن الضعفاء فيقول:

«إن رمت الحياة، فلا تتشبث بالعجز فيما يمكن حلّه، وإن رمت الراحة، فلا تستمسك بالجزع فيما لا علاج له»[1].

إنه طبيب نفساني وروحاني ملهم، لا يكاد يدع جانباً من جوانب الضعف في المجتمع، إلا ويبادر إلى معالجته بما يناسبه من دواء:

«أيها الخائف الضعيف!

إن خوفك وضعفك يذهبان سدى، لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك، لأنهما يشجعان الآخرين، ويثيران شهيتهم لافتراسك.

إن لله أن يختبر عبده، وليس للعبد أن يختبر ربه.

أيها المرتاب!

إن مصلحة محققة، لا يُضحَّى بها في سبيل مضرّة موهومة.

---

(١) الكلمات: ٨٥٣.

فعليك بالسعي، والنتيجة موكولة إلى الله تعالى»[1].

ومن تلك الأمراض النفسية، هذا النفاق الاجتماعي على ألسنة الناس الذين يغالون في المديح، وخاصة لذوي السلطان:

«إذا وصفت شيئاً، فصفه على ما هو عليه.. أعتقد أن المبالغة في المدح، ذمٌّ ضمني، لا إحسان أكثر من الإحسان الإلهي».

وكان يربّي تلاميذه على الحياة البسيطة البعيدة عن الانغماس في الترفّه كشأن أكثر الغافلين، وخاصة في هذا الزمان الذي يتضوّر فيه أكثر المسلمين جوعاً:

«كلما نادت اللذائذ، ينبغي الإجابة: (كأنني أكلت).

فالذي جعل هذا دستوراً له، لم يأكل مسجداً.

لم يكن أكثر المسلمين في السابق جائعين

فكان الترفُّه جائز الاختيار إلى حدّ ما.

أما الآن، فمعظمهم يبيتون جياعاً، فلم يعد لنا إذنٌ شرعي للتلذّذ.

---

(١) الكلمات: ٨٦٢.

إذ إن معيشة السواد الأعظم، وغالبية المسلمين بسيطة، فينبغي الاقتداء بهم في الطعام الكفاف البسيط.

وهذا هو الأفضل بألف مرة من الانسياق وراء أقلية مسرفة، أو ثلة من السفهاء في ترفههم في الطعام»[1].

وكان يخاطب سائر شرائح المجتمع، يكاد لا يغفل عن شريحة، حتى المرضى وأصحاب الابتلاء لهم نصيب فيما كتب، ومن رسائله القيمة في هذا المضمار (سلوة المرضى) التي قدَّم فيها خمسة وعشرين دواء لأهل البلاء الذين هم عُشر أبناء البشر نذكر منها هذه المقتطفات:

«أيها المريض المسكين! لا تقلق، اصبر، فإن مرضك ليس علَّة لك، بل هو نوع من الدواء؛ ذلك لأن العمر رأس مال يتلاشى، فإن لم يُستثمر فسيضيع كل شيء، وبخاصة إذا انقضى بالراحة والغفلة، وهو يحثُّ الخُطا إلى نهايته».

ويبرر هذا بقوله:

«أيها المريض النافد الصبر، تحلَّ بالصبر، بل تجمَّل بالشكر، فإن مرضك هذا يمكنه أن يجعل من دقائق عمرك في

---

(١) الكلمات: ٨٦٠.

حكم ساعات من العبادة، ذلك لأن العبادة قسمان:

الأول: العبادة السلبية (بالجوارح) المتجسدة في إقامة الصلاة، والدعاء، وأمثالهما.

الثاني: العبادة السلبية (بالقلب) الذي يتضرع منه المصاب ويلجأ إلى خالقه الرحيم، مستجيراً به، متوسّلاً إليه، منطلقاً من أحاسيسه التي تشعره بعجزه وضعفه أمام تلك الأمراض والمصائب، فينال بذلك التضرع عبادة معنوية خالصة متجردة من كل أنواع الرياء»[1].

«فتذكر جيداً نتيجة المرض المؤقت الذي تعانيه، وفكّر في الثواب المرجو المنتشر في ثناياه، وتشبَّث بالشكر، وترفَّع عن الشكوى، وقل:

ياهذا . . كل حال يزول»[2].

«تفكر في معنى العبادة المعنوية التي يتضمنها مرضك، والثواب الأخروي الذي يخفيه لك، واسْعَ لتنال ذلك الذوق الخالص الذكي»[3].

---

(١) سلوة المرضى: ٧ ـ ٨.

(٢) المصدر السابق: ١٤.

(٣) المصدر السابق: ١٦.

«فلا تبذُّر ـ يا أخي ـ ما وهبك الحق سبحانه وتعالى من قوة الصبر ـ يميناً وشمالاً، بل احشدها جميعاً مقابل الألم الذي يعتريك في هذه الساعة، وقل (يا صبور) وتحمّل صابراً محتسباً»[1].

ولا ينسى البعد الإنساني الأخوي في المرض:

«إن المرض يلقن صاحبه أهم عرى الحياة الاجتماعية والإنسانية، وأجمل أواصرها، وهما الاحترام والمحبة، لأنه ينقذ الإنسان من الاستغناء عن الآخرين، ذلك الاستغناء الذي يقود إلى الوحشة، ويجرد الإنسان من الرحمة، لأنه كما يتبين من الآية الكريمة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

إن النفس الأمارة الواقعة في شباك الاستغناء، الناجم عن الصحة والعافية، لن تشعر بالاحترام اللائق تجاه العلاقات الأخوية، ولن تحس بالرحمة والرأفة اللائقتين بالمبتلى بالمصائب أو المرضى»[2].

---

(١) سلوة المرضى: ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) المصدر السابق: ٣٢.

ويعدّ الرأفة والرحمة أهمّ الخصال الإسلامية، ولهذا كان يربي الناس عامة، وتلاميذه خاصة عليهما، ليكونوا الرحماء بالناس، الداعين إلى الله بهذه الصفات التي أكدها الإسلام مراراً في القرآن والسنة.

ويرى الدعوة إلى اللهو وما يتبعه من فجور قد استفحلت، وهي كفيلة بالقضاء على مروءة الناس، فبادر إلى بيان رأي الشرع في هذا في أكثر من مكان، فقال:

«نهت الشريعة الغراء عن اللهو وما يلهي.. فحرّمت بعض آلات اللهو، وأباحت أخرى؛ بمعنى: أن الآلة التي تؤثر تأثيراً حزيناً حزناً قرآنياً، وشوقاً تنزيلياً، لا تضرّ، بينما إن أثرت في الإنسان تأثيراً يتيمياً، وهيجت شوقاً نفسانياً شهوانياً، تحرم الآلة.. تتبدل هذه الحالة حسب الأشخاص، والناس ليسوا سواء»[1].

ويحزنه هؤلاء العاطلين عن العمل، ويعدّ عطالتهم نوعاً من الموت:

«إن أشدّ الناس شقاء واضطراباً وضيقاً، هو العاطل عن

---

(١) الكلمات: ٨٦٩.

العمل؛ لأن العطل هو (عدمٌ) ضمن الوجود، أي موت ضمن حياة. أما السعي فهو حياة الوجود، ويقظة الحياة»[1].

وهكذا انطلق في رسائله وفي مواعظه وخُطَبه، وفي اتصالاته الشخصية، وفي الندوات والمؤتمرات والمناسبات، وفي المقالات التي كان يكتبها في الصحف ـ وهذه هي كل الوسائل التي أتيحت له في زمنه لطرح أفكاره ـ يعمل على إنقاذ الإيمان الذي كاد يضيع في ركام الأفكار المستوردة الدخلية، وكانت وظيفة تلاميذه ليست إنقاذ إيمانهم وحدهم، بل هم مكلفون ـ أيضاً ـ بالحفاظ على إيمان غيرهم[2] من المسلمين في بيئاتهم المختلفة، ونشر الوعي الإسلامي حسب المنهج الذي اختطه النورسي لهم وليس الانغمار في السياسة.

رابعاً: ودعا إلى بعث الفكر الإسلامي من جديد، وإلى تجديد علوم الشريعة، لأن «الشريعة الغرَّاء، باعتبارها أزلية قديمة، ستبقى إلى الأبد؛ والنجاة والخلاص من ظلم النفس وشرّها، يكون بالاعتماد على الإسلام، وبالتمسك بحبل الله

---

(١) الكلمات: ٨٨٧.

(٢) الكلمات: ٨٧٧.

المتين، والاستمتاع الحقيقي بالحرية الحقة جزء من الإيمان، ومستمدّ منه»[1].

وبيّن فضل الإسلام على البشرية في العديد من رسائله وخطبه:

«كانت هناك هوّات سحيقة بين طبقات البشر قبل الإسلام، مع بُعد شاسع عجيب بينهما، فاستوجبت تعدد الأنبياء، وظهورهم في وقت واحد، كما استوجب تنوع الشرائع وتعدّد المذاهب.. ولكن الإسلام أوجد انقلاباً في البشرية، فتقارب الناس، واتحد الشرع، وأصبح الرسول واحداً»[2].

«وعقب حوادث آذار الشهيرة، اعتُقل مع الذين اعتقلوا، وفي المحكمة سأله الحاكم العُرْفي:

سمعت أنك من المطالبين بأحكام الشريعة؟

فأجاب:

لو أن لي ألف نفس لما ترددت بفدائها في سبيل حقيقة

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة: ٢٤٣.

(٢) الكلمات: ٨٦٤.

واحدة، وحكم واحد من أحكام هذه الشريعة. إنها طريق السعادة والعدالة والفضيلة المحضة».

«وكان في هذه الفترة، جل همّه تحكيم الشريعة في كل الشؤون، والرد على أولئك الذين وضعوا نصب أعينهم إبعاد الشريعة عن الحياة العامة، وغرّتهم الحياة الأوروبية وبهرجها»[1].

خامساً: العلماء:

وأولى العلماء الذين هم نمط آخر من الأمراء، عناية كبيرة، فهم ذوو مسؤوليات كبيرة تجاه العامة والخاصة، وهم أولى الناس بابتعاث الفكر الإسلامي، وحمل أعباء الدعوة إلى الله، ولهذا عرّفهم بواجبهم تجاه المدّ العلماني الإلحادي، وحذّرهم من الركون إلى الظالمين، كما حذَّرهم من انتقاد بعضهم بعضاً بقصد التشهير، لأن المستفيد من تناحرهم وتنابذهم هم الملاحدة؛ وطالبهم أن يكونوا قدوات عملية للناس، وشكر الواعين والعاملين منهم.. ترى هذا وأضعافة في العديد من رسائله.

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة: ٢٤٣.

سادساً: رجال الحكم:

لم يكن الأستاذ النورسي منعزلاً عن أصحاب الإدارة والقرار، وسيرة حياته تحكي لنا عن لقائه السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان محمد رشاد، ومصطفى كمال، والنواب في مجلس المبعوثان، وغيرهم.. كان يلتقي بعضهم، ويراسل بعضهم الآخر، ويخطب ويحاضر أمام آخرين، كما فعل في مجلس المبعوثان.. كان يطالبهم بحقوق الأمة عليهم، ويذكّرهم بواجباتهم تجاه الدين والأمة والوطن.. وكان يلين أحياناً كما في رسالته إلى السلطان عبد الحميد، والرئيس جلال بايار، ورئيس الوزراء عدنان مندريس، ويشتد أحياناً أخرى، خاصة مع الكماليين الملاحدة، وزعيمهم مصطفى كمال.

والحق إن الأستاذ النورسي لم يكن يوفر أحداً في دعوته، مسلماً وغير مسلم، أميًّاً ومتعلِّماً، عاملاً وعالماً وفلاحاً وطالباً، كما لم يكن ليوفر مناسبة سعيدة أو حزينة، عامة أو خاصة، إلا ويذكّر بدعوته، وبأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها ويدعو الآخرين إلى السعي معه في سبيل إنجاز ما يمكن إنجازه منها.

* * *

أهدافُــه

كان الهدف الرئيس للأستاذ ـ رحمه الله تعالى ـ إنقاذ الإيمان، ليعود الناس إلى دينهم، ويقيموا بيوتهم ومجتمعهم ودولتهم على الإسلام، يقول الأستاذ:

«إن غايتي إصلاح الأسس التي يُبنى عليها الإيمان، فإذا أصبح الأساس صلباً قوياً، فلا يؤثر فيه مؤثر بعد، حتى الزلازل..»[1].

فليس له من غاية في هذه الحياة، سوى إنقاذ الإيمان، وإعادته إلى القلوب التي خوت، وإلى الحياة، بعدما ران من الضلالات والإلحاد الذي يسعى إلى القضاء عليه، وفي القضاء على الإيمان قضاء على الأمه في الدنيا والآخرة؛ لذلك ركّز جُلّ مساعيه على بيان (حقيقة الإيمان) التي تبعث

---

(١) أسيد إحسان قاسم: ٢١.

الطمأنينة في الفرد، والسعادة في المجتمع، بدلاً من تقديم وصفات اجتماعية غير قابلة للتطبيق.

وهذا الهدف النبيل ضروري جداً لأي جماعة تحترم نفسها، وتسعى لتحقيق طموحاتها السامية، يقول الأستاذ:

«إن لم يكن لفكر الجماعة غاية وهدف مثالي، أو نُسيت تلك الغاية، أو تنوسيت، تحوّلت الأذهان إلى أنانيات الأفراد، وحامت حولها، أي يتقوى (أنا) كل فرد، وقد يتحدد ويتصلّب، حتى لا يمكن خرقه، ليصبح (نحن) فالذين يحبون (أنا) أنفسهم، لا يحبون الآخرين حب حقيقياً»[1].

أما الأهداف الأخرى التي سوف تنبثق بشكل طبيعي من هذا الهدف الكبير، فكثيرة نذكر منها:

ـ **القضاء على الجهل** بنشر العلم، وتعميم المدارس والجامعات في أنحاء الدولة، ولم يألُ جهداً في ذلك، فقد اتصل بالسلطان عبد الحميد وحاور وزير داخليته، من أجل إنشاء جامعة في شرقي الأناضول، تكون على غرار الجامع

---

(١) الكلمات: ٨٦٣.

الأزهر، ثم اتصل من بعده بالسلطان محمد رشاد، من أجل هذه الغاية، ولكنه لم يفلح، مع أنه قدّم بين يدي السلطانين دفوعاً مقنعة، وبيّن مصلحة الدولة والأمة في ذلك، ثم عاود المطالبة أيام الكماليين، وبقيت جامعة الزهراء حلماً يداعب خياله طوال عمره المديد، وكان ذا نظر ثاقب في إنشاء (الزهراء)، التي لو أنشئت، وتعلم الشعب الكردي في شرقي الأناضول، وعرف ربه ودينه؛ لما حصل الذي حصل ويحصل الآن في تركيا الطورانية العلمانية.

كما دعا إلى الأخذ بالعلوم الحديثة، وتدريسها إلى جانب العلوم الدينية، ولم يرفضها لأنها جاءت من أوروبا، لأن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحقّ بها فيلتقطها. وعدّ الجهل من ألدّ أعداء الأمة، إلى جانب الفقر والاختلاف والاستبداد، وكان يرى أن العلم كفيل بالقضاء على هذه الأعداء الثلاثة.

ولهذا رأيناه يتبحَّر في مختلف العلوم الدينية والكونية، ويؤلف ويكتب ويحاضر، ضارباً بنفسه وبإخوانه العلماء والمتعلمين أروع الأمثال في التعلق بالعلم، وبالدعوة إليه.

ـ **القضاء على الفقر**، عن طريق العمل والكسب الحلال، وعن طريق العلم.

ـ **القضاء على الاستبداد**، بالدعوة إلى الشورى، وتحكيم شرع الله والقرآن الذي ينص على الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، ويأمر نبيّه الكريم بمشاورة أصحابه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، والعلم والإيمان كفيلان بالاستبداد والمستبدين.

ظهر هذا في مقالاته في الصحف، وفي مقابلاته مع رجال الإدارة والحكم، وفي تجواله بين الناس، وأحاديثه معهم.

ـ **الدعوة إلى وحدة المسلمين أو اتحادهم**، ونبذ الخلافات فيما بينهم، تمهيداً لتحقيق هدف عظيم، هو عودة الخلافة الإسلامية التي قضى عليها الكماليون العلمانيون. يقول النورسي، موجهاً كلامه إلى طوائف الأمة:

«إن لم تزيلوا هذا النزاع، فإن الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً، تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر»[1].

---

(١) الكلمات: ٨٦٣.

إذن . . كان يدعو إلى الاتحاد والوحدة دائماً، ويتجنب كلياً الأمور التي تعوق الاتحاد وتعرقله كتلك الاختلافات التي ينشبها الأعداء بين المسلمين أفراداً ودولاً وشعوباً مستغلاً غرقها في بحار التخلف والجهل والغفلة، ولهذا كان يقول لتلاميذه داعياً إياهم إلى التآخي والتوادّ والتحابّ:

«إخوتي! إن الإسلام لا حاجة له بخدمتكم وعملكم، بقدر ما هو في حاجة ماسة إلى تساندكم وترابطكم، فعليكم أن تقرؤوا بين حين وآخر، كلاًّ من رسائل: (الإخلاص) و(الأخوة) و(الهجومات الستة) فيما بينكم، ذلك لأن تساندكم وإخلاصكم وثباتكم وصلابتكم السائدة فيما بينكم منذ البداية، ستكون مفخرة لهذه البلاد»[1].

لماذا؟ لأنها مظهر حقيقي من مظاهر الوحدة الصغرى التي ستكون نواة لوحدة فصائل الأمة الإسلامية وشعوبها.

وكان دائم الهتاف:

«أيها العالم الإسلامي! إن حياتك في الاتحاد، وإنّ موتك في الفرقة والاختلاف».

---

(١) أسيد إحسان قاسم: ٨٩.

لأنه كان يرى أن من أهم أسباب ضعف المسلمين وتأخرهم، هذه الفرقة وهذا التمزق الذي طالما سعى إليه الأعداء حتى حقّقوه؛ ولا يمكن للمسلمين أن ينهضوا إلا بوحدتهم أو اتحادهم على أقل تقدير.

في نظريات التغيير:

هناك عدة نظريات للتغيير، وقد أحصاها الأستاذ منير شفيق بالتالي:

١ ـ **نظرية العمل المسلح**: كفعل الأمير عبد القادر الجزائري، وعمر المختار، وعبد الكريم الخطابي.

٢ ـ **نظرية العمل السياسي**: وهي نظرية جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

٣ ـ **نظرية الثورة المتحالفة**: وهي التي انتهجها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تحالفة مع الأمير محمد بن سعود.

٤ ـ **النظرية التربوية**: وهي التي تحضّر لمرحلة أخرى أو أكثر، وينتقل فيها العمل إلى الجهاد، وهي نظرية الإمام الشهيد حسن البنا.

٥ ـ **نظرية الثورة على الحاكم الجائر**، كما حدث في اليمن.

٦ ـ **نظرية استخدام مختلف أشكال المقاومة** ضد الاستعمار المباشر، كما حدث في ثورة الجزائر.

٧ ـ **نظرية التحريض اليومي**: كثورة الإمام الخميني في إيران»[1].

نظرية التغيير عند النورسي:

الغريب أن الأستاذ منير شفيق لم يذكر الإمام النورسي بين هؤلاء، ولعل السبب يعود إلى عدم اطلاعه على التراث الفكري الهائل لبديع الزمان، أو لأن أحداً لم يبلور نظرية النورسي في التغيير.

ومن خلال اطّلاعي على بعض تراث النورسي، أرى مشابه كثيرة في عملية التغيير بينه وبين ما جاء به الأستاذ البنا، أي النظرية التربوية التي تتطور إلى عمل سياسي لم تنفكّ عنه يوماً، برغم لعن النورسي للشيطان والسياسة معاً، وقد تتطور

---

(١) منير شفيق: في نظريات التغيير: ٥٧ و٥٨ بتصرف.

إلى عمل جهادي ـ لو أتيح لها ذلك في قابل الأيام ـ كما فعل الأستاذ البنا عندما خاض مع إخوانه في مصر وسورية والأردن وفلسطين حرباً مع يهود، وكما جاهد النورسي وإخوانه في القفقاس. .

على أي حال، لم يكن في مشروع بديع الزمان أيّ توجه نحو العمل المسلح داخل تركيا، ضد الحكام الملاحدة من الكماليين، برغم إعلانهم الحرب الضروس على الإسلام وعلمائه والدعوة إليه، ولذلك لم يؤيد ثورة الشيخ سعيد بيران على النظام الكمالي القومي العلماني، لأسباب نعرف بعضها، ولا نعرف بعضها الآخر.

يقول الدكتور محسن عبد الحميد:

«ولإيمان الأستاذ بالتغير في إطار انتشار الوعي الاجتماعي، والدعوة السلمية، فإنه لا يبيح الجهاد المسلح الداخلي الموجَّه إلى حكام المسلمين، لأن ذلك لا يخدم ـ من وجهة نظره ـ إلا العدوّ الخارجي المتربص بالمجتمع الإسلامي من حيث هو كلّ.

فهو يقول: «إن الجهاد المسلَّح لا يحشد كلياً إلا ضدّ العدو الخارجي، والصراع المسلح داخل البلاد الإسلامية،

هو ما يصبو إليه العدو الخارجي، إذ إن سفك دماء المسلمين فيما بينهم، أمر يهمهم»، ويضيف: «إن الجهاد في أي مجتمع إسلامي، إنما هو جهاد معنوي، يتوصل إليه عن طريق تنوير الأفكار، وإصلاح القلوب والأرواح.

ويكون جهاداً إيجابياً بنّاءً لصدّ التخريبات المعنوية، ويُتصرف فيه وفق سرّ الإخلاص، فهناك بون شاسع بين الجهاد في الخارج والجهاد في الداخل، فنحن نبذل قصارى جهودنا للحفاظ على استقرار البلاد، وأمنها، وفق العمل الإيجابي البنّاء..

في هذا الوقت، الفرق عظيم جداً بين الجهاد الداخلي والجهادالخارجي»[1].

وقارئ تراث الإمام النورسي لا بد له من أن يلاحظ اتسام نظريته الإصلاحية التغييرية بالسمات التالية:

١ ـ التدرج في الإصلاح والدعوة إلى التغيير.

يقول الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه عن النورسي: كان النورسي «يؤمن (بالنظام)، ويبعد (الفوضى)،

---

(١) د. محسن عبد الحميد: ٦٢ و٦٣ عن ملحق أمير داغ: ٢/ ٢١٤.

ويؤمن (بالتدرج)، ولا يعتقد (بالطفرة). فالنظام والتدرج هما أساس الوجود كله، وأي خروج عليهما، يعني إدخال الفساد عليه، وهو خروج واضح على تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، والقرآن هو الكون المقروء، والسنّة هي الكون المطبق في الحياة العملية».

«وفي ضوء ذلك، فإن النورسي يدعو إلى تغيير اجتماعي منظم، يتمسك بقانون التطور الفطري التدريجي، ويجب أن يبدأ من القاعدة، ويصعد إلى القمة، لا العكس، لأن العكس سيؤدي إلى زعزعة الحياة الاجتماعية، ويحصل منه شر مستطير، وتخريب كبير».

فهو يقول:

«إن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية، ويؤسس حركة؛ لا يستثمر مساعيه، ولن يكون النجاح حليفه، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله لأجل التخريب والشر»[1].

«إذن فلا بدّ أن يكون قانون التغير في حياته هو التغير

---

(١) اللمعات: ١٦٠.

التدريجي، حتى لا يختلّ توازن الحياة، فيؤدي إلى نتائج عكسية»[1].

ولهذا بدأ بالأهم ثم المهم في سلم الأولويات الذي هو منهج الأنبياء. ومن هنا كان تركيزه على إعادة الإيمان إلى النفوس والقلوب والحياة، وكل الأهداف الأخرى كانت تابعة للإيمان، ونابعة منه؛ يقول:

«إنه لا بد لهذا العصر من مجدد له شأنه، ليقوم بتجديد الدين والإيمان، وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتجديد الحقوق العامة، والسياسة الشرعية، ولكن أهم تلك الوظائف هو التجديد في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية، فهو أجل وأعظم تلك الوظائف الثلاث؛ لذا تبقى دوائر «الشريعة» و«الحياة الاجتماعية والسياسية» في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، بالنسبة إلى دائرة الإيمان»[2].

أي أنه كان قد وضع سلم أولوياته على النحو التالي:

---

(١) د. محسن عبد الحميد: ٦٢.

(٢) الملاحق: ١٩٦.

الإيمان، ثم التربية، ثم الشريعة؛ ولهذا تدرَّج في دعوته الإصلاحية من الفرد: عاملاً، وفلاحاً، وطالباً، وعالماً، ورجل إدارة وسياسة، يغرس في نفوسهم العقيدة والإيمان والأخلاق ومبادئ الإسلام وفضائله، ثم ينتقل إلى البيت: زوجاً وزوجة وأولاداً وأسرة، ثم إلى المجتمع بكل ما فيه من شرائح وطبقات وفئات، ثم إلى الأمة الإسلامية.

واستمر النورسي في تطبيق نظريته التغييرية عن طريق:

نشر حقائق الإسلام بالأدلة والبراهين.

وتكوين الجيل المؤمن الصالح.

وبثّ الوعي الإسلامي بخطورة الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين.

وتهيئة صفوف الأمة للوقوف أمام الموجة اللادينية الطاغية.

ونقل التربية الإسلامية إلى داخل البيوت».

«وقد نجح أسلوبه هذا إلى حدٍّ بعيد»[1].

---

(١) د. محسن عبد الحميد: ٦٥.

٢ ـ وكان منهجه في الإصلاح والتغيير يقوم على الوسطية، وعدم التعصب أو المغالاة في التحيز.

يقول الأستاذ النورسي:

«أيها العالم الإسلامي! إن حياتك في الاتحاد.

إن كنت طالباً للاتحاد، فاتخذ هذا دستورك.

لا بد أن يكون «هو حق» بدلاً من (هو الحق)

إذ يحق لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه:

«إن هذا حق» ولا أتعرض لما عداه، فإن يكن جميلاً فمذهبي أجمل.

بينما لا يحق له أن يقول في مذهبه:

(إن هذا هو الحق، وما عداه باطل، وما عندي هو الحسن فحسب، وغيره قبيح وخطأ).

إن ضيق الذهن وانحصاره على شيء، ينشأ من حب النفس، ثم يكون داء، ومنه ينجم النزاع»[1].

وبهذا السلوك يكون التعاون والاتحاد، وبغيره يكون

---

(١) الكلمات: ٨٩٦.

التنازع والتخاصم والتنابذ، وهو ما يسعى إليه أعداء هذه الأمة، وعلى هذه الوسطية ربّى تلاميذه، ليصلح بهم الناس، وبهذه الوسطية نفسر موقفه من حضارة الغرب وفلسفته وعلومه، وموقفه من المدارس الدينية والمدارس الحديثة، ومن العلماء المبتدعين، ومن الصوفية المنعزلين.

٣ ـ **وكانت دعوته شمولية**، تحاول أن تكون مكافئة للقوى الثقافية المعادية، لأن المد الإلحادي في تركيا كان يشمل جميع جوانب الحياة، وكان يركّز على الأصول والكليات في الإسلام، قبل الفروع والجزئيات، ولذلك جاءت دعوة النورسي متّسمة بسمة الشمول والكلية[1]. . اسمعه يقول:

«إن رسائل النور لا تعمر تخريبات جزئية، ولا ترمم بيتاً صغيراً مهدماً، بل تعمر أيضاً تخريبات عامة كلية، وترمم قلعة عظيمة، صخورها كالجبال، تحتضن الإسلام وتحيط به. . وهي لا تسعى لإصلاح قلب خاص ووجدان معين، بل تسعى أيضاً ـ وبيديها إعجاز القرآن ـ لمداواة القلب العام

---

(١) د. الوصيف: ١٠٥.

المجروح، وضماد الأفكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة التي هيئت لها، وركمت منذ ألف سنة، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجه نحو الفساد نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند العظيم للجميع، ولا سيما عوام المؤمنين. . نعم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان.

فأمام هذه التخريبات الكلية الرهيبة، والشكوك الواسعة، والجروح الغائرة، ينبغي وجود حجج دامغة، وأعتدة مجهزة بدرجة حق اليقين، وبقوة الجبال ورسوخها، ووجود أدوية مجربة لها من الخواص ما يفوق ألف ترياق وترياق، ولها من المزايا ما يضاهي علاجات لا حدَّ لها»[1].

ولأجل هذا كان يخاطب سائر فئات المجتمع حكَّاماً ومحكومين، علماء وعامة:

«وانطلاقاً من هذا الشمول فقد سار في الخطوط العامة المتوازية في دعواته، حيث إصلاح الفرد، وإصلاح البيت، وإصلاح المجتمع، وإظهار الحقائق بإزالة اللبس لدى

---

(١) الملاحق: ١١٨.

طلاب النور، وتفنيد شبه العلمانيين، وشبه غير المسلمين، وكشف الحقيقة حول دعوته لدى المسؤولين، وفي دفاعاته في المحاكم، وإظهار الحقائق حول الأفكار السائدة في تركيا على زمانه، وبذل مساعيه المضنية لأجل عودة الخلاف الإسلامية.

ولم يقصر الدعوة على جانب معرفي معين، بل كانت شاملة لجميع العلوم والمعارف التي شملها الإسلام. يقول عن الرسائل التي هي مرآة دعوته:

«إن رسائل النور تسد الحاجة التي تخص الحقائق الإسلامية، فلا تدع حاجة إلى مراجعة مؤلفات أخرى»[1].

٤ ـ **وكانت دعوة عالمية**، وليست إقليمية، وكان يحثُّ على ترجمة رسائله إلى اللغة العربية، وإلى اللغات الأخرى التي تنطق بها سائر الشعوب الإسلامية، بل وغير الإسلامية، من أجل التبشير بأفكاره وتعاليمه المنبثقة من القرآن والسنة، وكان يأمل أن يقوم علماء من الأزهر أو من بلاد الشام بترجمتها إلى اللغة العربية، كما أوفد أحد طلبته إلى العراق

---

(١) د. الوصيف: ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

ومصر من أجل هذا الغرض.

ولذلك كان يضع أمله في العرب، وليس في قومه الأكراد، ولا في الأتراك، شأنه شأن أي عالم، أو مجدّد، أو مصلح إسلامي، يعمل على النهوض بأمة الإسلام، وليس أحقّ من العرب المسلمين بالنهوض، واستلام زمام القيادة. قال في خطبته الشامية:

«إنني أنتظر من العرب أن يوحِّدوا صفوف المسلمين، ويعيدوا إلى الإسلام سالف عهده، وأملي كبير بأن الأجيال القادمة سوف تعيش اليوم الذي يمتدّ فيه الإسلام إلى شتى أنحاء العالم»[1].

ويعرّض بالقوميين العرب العلمانيين المنادين بالقومية العنصرية البعيدة عن الإسلام، كدعاة القومية التركية الطورانية فيقول:

«وكذا العرب قد سرى الإسلام فيهم، فلا يمكنهم الانفصال عنه والانفصام، فلا معنى للعرب ولا مكانة إلا إذا اقترنت عروبتهم بإسلامهم، فالقومية خطر عظيم»[2].

---

(١) عبد الفتاح أبو غدة: ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٩.

ولذلك كان يؤكد على اللغة العربية، والحروف العربية، يعلّمها تلاميذه، ويدعو إلى أن تكون خطبة الجمعة باللغة العربية، ولا يرى إلقاءها بغير العربية تحت أي ذريعة.

ونظرته إلى الأتراك كنظرته إلى العرب في تمسكهم بالإسلام، وأنهم جزء لا يتجزأ منه. يقول:

«إن الأتراك قوم لا يمكنهم الانفصال عن الإسلام، وهم جزء غير قابل للانفصال عن الأمة الإسلامية، حتى إن غير المسلم فيهم لا يكون تركياً، فكل تركي مسلم»[1]. وليذهب أدعياء القومية ودعاتها إلى الجحيم.

ولكن أبرز صفة يمكن وصف دعوته بها، هي أنها إسلامية تُعنى بقضايا العقيدة، لاسيما وجود الله ووحدانيته، واليوم الآخر (الحشر) وما يتعلق به من الأمور الغيبية. وكل خصائص دعوته التي أشرنا إليها، وهي: (التدرج، والوسطية، والشمول، والعالمية) هي من خصائص هذا الدين.

* * *

(١) عبد الفتاح أبو غدة: ٢٤٩.

وسائله في تحقيق تلك الملامح الإصلاحيّة

كان هامش الحرية الذي أتيح للأستاذ النورسي ضيقاً وضيقاً جداً، وقد تقدم أنه قضى زهرة عمره في المنافي والسجون والمعتقلات. . ثمانية وعشرين عاماً لا غير قضاها سجيناً ومنفياً بعيداً عن الناس وعن تلاميذه، ولهذا لم يتح له من الوسائل إلا النزر اليسير للتبشير بدعوته الإصلاحية، في السجون، حيث اهتدى على يديه عدد من المجرمين المحبوسين معه، وفي المنافي، حيث كان يشدّ أنظار الفلاحين البسطاء إليه بمنظره ودينه وأوراده واستقامته وصبره، كما شدّ عدداً من أفراد الشرطة القائمين على مراقبته، وكذلك بعض القضاة الذين كانوا يستمعون إلى مرافعاته ودفوعه الرائعة المقنعة ببراهينها وأدلتها المصحوبة بحماسة وجرأة وفاعلية. .

وقد استثمر الأستاذ النورسي كل الوسائل المتاحة، من

اتصالات شخصية، إلى الخطب والمواعظ والمحاضرات في المناسبات المختلفة، إلى الكتابة في الصحف، إلى تأليف رسائل النور التي كانت ـ وما تزال ـ دروساً قرآنية توافق أفهام هذا العصر، وكانت كل رسالة منها هي سعيد النورسي نفسه، كما قال في (كلماته)[1].

وكان يكتب (المكاتيب) أي الرسائل الشخصية إلى تلاميذه وإلى الهيئات الإسلاميّة، وغير الإسلامية، ويجيب بها سائليه، كما كان يكتب الرسائل إلى الحكام والعلماء والوجهاء، ينصحهم حيناً ويأمرهم وينهاهم حيناً آخر.

وقد ظهرت مواهبه المتعدّدة، ومؤهلاته العقلية والمنطقية والعلمية، في محاوراته ومناظراته.. ظهر فيها عقله المرتّب، ومنطقه العلمي السليم، فكان يلزم الخصوم حدودهم، ويكسب ذوي الضمائر الحيّة والمخلصين المغرَّر بهم. نذكر من حواراته ومناظراته، ما كان مع وزير داخلية السلطان عبد الحميد، ومع مفتي مصر الشيخ محمد بخيت المطيعي، ومع القائد العام للجيش الروسي خال القيصر نقولا، ومع مصطفى كمال، ومع حسين باشا رئيس العشائر الكردية الذي جاء يدعوه إلى الاشتراك في ثورة الشيخ سعيد

(١) الكلمات: ٨٩٦.

بيران ضدّ النظام الكمالي العلماني، وحواره مع رؤساء العشائر الكردية والتركية، لتحطيم اليأس، وبعث الأمل في النفوس. ولعلّ أروع تلك المحاورات والمناظرات ما كان مع المحققين والقضاة الذين كانوا يحققون معه، لإدانته والإيقاع به، وقد كانت دفوعه ومرافعاته، في المحاكم العلنية، وسيلة فعّالة في نشر أفكاره وآرائه، بل كانت خير وسيلة لشرح غاية دعوته، وفضح مرامي الذين يقفون ضدّه، ومقاصدهم المعادية للإسلام والداعين إليه.

وكل نظرية تغييرية تحتاج إلى الموارد البشرية بأعدادها ونوعيتها وإلى الخبرات اللازمة، والتقنية المكافئة، وإلى الوقت الكافي لعملية التغيير، وإلى المكان الجاهز والصالح لتلك العملية[1].

وهذه كلها لم تكن متوافرة لدى بديع الزمان، لطبيعة الظروف القاسية التي كان يعيشها، والتي فرضها عليه أعداء الإسلام.

صحيح أنه كان مقتنعاً بضرورة الإصلاح والتغيير، وقد استطاع إقناع أتباعه بهما، بما كتب وشرح لهم، وبالوضع الشائن الذي عرّاه أمامهم، حتى جعلهم ينفصلون عن هذا

---

(١) بشير الجابري: ٧١.

الواقع نفسياً، بفقد انبهارهم به، وبأن المستقبل يجب أن يكون لهذا الدين.

وصحيح أنه استطاع تحويل أحاسيس اليأس والإحباط إلى مشاعر إيجابية بنّاءة، واستطاع تعبئتهم تعبئة نفسية سليمة، وولّد لديهم طاقة جديدة يحدوها الأمل بمستقبل أفضل.

هذا كله صحيح، ولكن التحديات كانت أكبر من الوسائل المتاحة له.. كانت الرياح الهوج تعترض سفينة حياته التي تتقاذفها وتلاطمها أمواج القوى السياسية والثقافية المعادية.. كان الناس أكثر الناس يسبحون مع تيار الإلحاد والانفلات، وكان هو وتلاميذه يسبحون ضدّ ذلك التيار الهائل الهادر الذي حشد له الحاشدون الحشود التي أرادوا بها القضاء المبرم على الإسلام وحُماته، والإجهاز على علمائه والدعاة إليه على علم وبصيرة. فالقوى لم تكن متكافئة، ولم يكن الخصوم أخلاقيين في خصومتهم، لأنهم كانوا يسيرون في ركاب أفكار وحضارة بلا أخلاق.

ولذلك.. قضى الأستاذ نحبه، ولمّا يقضِ وطره في إنقاذ الإيمان، وعودة الإسلام إلى الحياة والمجتمع من جديد.

* * *

الأبعاد الفكرية والاجتماعية والسياسية لدعوته

كانت الدولة العثمانية، ثم الدولة الكمالية، غارقتين في الجهل والفقر والتخلف.. أميّة ضاربة أطنابها في المجتمع التركي عامة، وفي الأرياف الفقيرة خاصة.. أمّية في القراءة والكتابة، وأمّية فكرية قاتلة.. وبشكل أخصّ، في كل ما له صلة بهذا الإسلام، حتى غدا الإسلام بمبادئه العظيمة، مشوّهاً، تتناوشه سهام الغدر من كل جانب، جهل مطبق في العبادات التي كانت صورية شكلية لا روح فيها.. وجهل أشدّ بتعاليم الإسلام ومبادئه القويمة، التي تعرَّضت لأشرس حملة يهودية صليبية علمانية حاقدة عليها.. على الإسلام، وعلى تاريخه، وعلى رجاله، حتى رسول الإسلام ﷺ لم يسلم من طعنات الطاعنين به، والمسلمون عاجزون جهلة، وعلماء الإسلام بين منكفئ على نفسه، وفارّ بدينه، وبين منحرف مبتدع سائر في ركاب الحاكمين.

عاصر بديع الزمان هاتين المرحلتين الحالكتين، ووعى الداء، فتسلَّح بالعلم والإيمان والإخلاص، ثم انطلق يجوب المدن والقرى والأقاليم التي كانت تابعة للدولة العثمانية، وقابل السلاطين والوزراء ورجال الحكم والإدارة، وطالبهم بالإصلاح، وبتحمُّل مسؤولياتهم تجاه الأمة والوطن، كما دعا أبناء الشعب إلى اليقظة والنهوض من الهوَّة السحيقة التي تردَّوا فيها منذ زمن، فتعرَّض لما تعرَّض له من بلاء السجن والتعذيب والنفي، والملاحقة والتضييق عليه وعلى تلاميذه طلاب مدرسة النور؛ دون أن تلين له قناة، أو تضعف له عزيمة، أو تخور له إرادة، وكان لرسائله وخطبه ومواعظه ومرافعاته ومقالاته الصحفية، آثارها في نفوس الناس، فقد عرَّى الدعاوى العلمانية، وفضح أهداف القوميين والبلاشفة والماسون، وصحَّح الفكرة المشوَّهة عن الإسلام ونبيّ الإسلام، عن طريق رسائل النور التي انتشرت في أنحاء تركيا، فانبثقت عنها صحوة فكرية، تمثَّلت في سيل المطبوعات والكتب في العديد من المدن التركية، واستطاعت أن تضغط على رجال السياسة، وجلُّهم من العلمانيين، فاستجابوا لبعض مطالب المسلمين، وتزلَّفوا

للشعب المسلم، فأعاد رئيس الوزراء عدنان مندريس ـ رحمه الله ـ الأذان إلى لغته العربية، وسمح بفتح العديد من مدارس الأئمة والخطباء، وبفتح الجامعات والكليات الشرعية الإسلامية.

بل إننا نستطيع أن نزعم أنَّ المدَّ الإسلامي المعاصر في تركيا، ما هو إلا نتيجة طبيعية لتلك الصحوة الاجتماعية الإسلامية التي تركها لهم شيخهم الإمام بديع الزمان النورسي، صاحب هذه المدرسة وما حوت من تراث فكري ضخم، كان الشموع وكان المنارات، في ليل تركيا البهيم...

إن المدّ الإسلامي المعاصر في تركيا، فكريّاً، وسياسيّاً، وعلمياً، واقتصاديا، وتربوياً، هو من ثمرات بديع الزمان الذي غرس غراسها منذ بداية هذا القرن، وشرع يتعهدها بالتربة الصالحة، والسقاية والرعاية، حتى آتت أُكُلها، وصارت قاب قوسين أو أدنى من الهدف الذي سعى الإمام النورسي إلى تحقيقه قرابة ثلاثة أرباع القرن.

• • •

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وصلّى الله على سيّدنا وقائدنا وقدوتنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
بديع الزمان النورسي	٧
عصر النورسي	٣٥
المؤثرات في تكوينه الفكري	٤١
منهجه في التعامل مع الخلافات الفكرية	٤٩
ملامح خطته الإصلاحية والتغييرية	٩١
أهدافه	١٣٣
وسائله في تحقيق تلك الملامح الإصلاحية	١٥١
الأبعاد الفكرية والاجتماعية والسياسية لدعوته	١٥٥
الفهرس	١٥٩

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٢ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزيع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١